٢



القسم الثاني

تفسير
سورتي آل عمران والنساء

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

اهداءات ٢٠٠١

الاستاذ / حسنى رياض

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير

بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الثاني

تفسير

سورتي آل عمران والنساء

تأليف

محمّد علي الصّابوني

الأستاذ بكليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة

جامعة أمّ القرى ـ مكّة المكرّمة

دار القرآن الكريم

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



(٣) سورة آل عمران مدنية وآياتها مائتان

بين يدي السورة

سورة آل عمران من السور المدنيّة الطويلة ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما : **الأول** : ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جل وعلا. **الثاني** : التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله . . أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر ، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذّبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة ، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام ، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود ، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب ، أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهزموا في أُحد بسبب عصيانهم لأمر الرسولﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل ، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس ، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين ، ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتقانٍ وإبداع ، وعجائب وأسرار تدل على وجودِ الخالق الحكيم ، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذّة الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم الفلاح والنجاح ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

فضلها : عن النواس بن سمعان قال سمعت النبي ﷺ يقول : (يُؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقْدمهم سورة البقرة وآل عمران)[١] .

التسمية : سميت السورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة « آل عمران » والد مريم أم عيسى ، وماتجلّى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى عليهما السلام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿الٓمٓ ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . إلى . . إن الله لا يخلف الميعاد﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٩)

اللغة : ﴿الحي﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿القيوم﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يصوركم﴾ التصوير : جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿الأرحام﴾ جمع رحم وهو محل تكوّن الجنين ﴿محكمات﴾ المحكم : ما كان واضح المعنى قال القرطبي : « المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه : ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور ، هذا أحسن ما قيل فيه »[٢] ﴿أم الكتاب﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زيغ﴾ ميلٌ عن الحق يقال : زاغ زيغاً أي مال ميلاً ﴿تأويله﴾ التأويل : التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه ﴿الراسخون﴾ الرسوخ : الثبوت في الشيء والتمكن منه قال الشاعر :

لقد رسخت في القلب مني مودّة ... لليلى أبت أيامُها أن تغيّرا[٣]

سبب النزول : نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم « عبد المسيح » أميرهم و « الأيهم » مشيرهم و « أبو حارثة بن علقمة » حبرُهم . فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارةً عيسى هو « الله » لأنه كان يحيي الموتى ، وتارةً هو « ابن الله » إذ لم يكن له أب ، وتارة إنه « ثالث ثلاثة » لقوله تعالى « فعلنا وقلنا » ولو كان واحداً لقال « فعلتُ وقلتُ » فقال لهم رسول الله ﷺ : ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت ! ! قالوا : بلى ، قال ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ! ! قالوا بلى ، قال ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا : لا ، قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ! ! قالوا بلى فقال ﷺ فكيف يكون كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيفٍ وثمانين آية[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم . (٢) القرطبي ٤/ ٩ . (٣) القرطبي ٤/ ١٩ . (٤) الفخر الرازي ٧/ ١٦٥ وابن كثير المختصر ١/ ٢٨٨ .

الۤمۤ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ

التفسير : ﴿الم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدّم في أول البقرة ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي لا ربَّ سواه ولا معبود بحقٍ غيره ﴿الحي القيّوم﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون عباده ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ أي نزّل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزّلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس﴾ أي أنزل الكتابين العظيمين « التوراة » و « الإنجيل » من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقيل : المراد بالفرقان القرآنُ وكرّر تعظيماً لشأنه[1] ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي غالب على أمره لا يُغلب ، منتقم ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمرٌ من الأمور ، فهو مطّلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكرٍ وأنثى ، وحَسن وقبيح ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي لا ربّ سواه ، متفردٌ بالوحدانية والألوهية ، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنبّه تعالى بكونه مصوّراً في الرحم ، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿فيه آياتٌ محكمات هنَّ أمُّ الكتاب﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام ، هنَّ أصل الكتاب وأساسه ﴿وأُخَر متشابهات﴾ أي وفيه آيات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس ، فمن ردّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى ، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه﴾ أي فأمّا من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال

(١) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان مصدر بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿نزّل عليك الكتاب﴾ .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

فيتبع المتشابه منه ويفسّره على حسب هواه ﴿ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي طلباً لفتنة الناس في دينهم ، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله ، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه﴾ على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ الدالّ على أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ﴿كلٌ من عند ربنا﴾ أي كلٌ من المتشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله ، قال تعالى ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا﴾ أي لا تمِلْها عن الحق ولا تضلّنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وهبْ لنا من لدُنك رحمة﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب « يوم الحساب » الذي لا شك فيه ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي وعدك حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد ، كقوله تعالى ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾ ؟ !

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿نزّل عليك الكتاب﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب .

٢ ـ ﴿لما بين يديه﴾ كناية عمّا تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره .

٣ ـ ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة ثم عمَّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص .

٤ ـ ﴿هنَّ أم الكتاب﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له ، وكأنَّ سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمه[1] .

(١) تلخيص البيان ص ١٧ .

٥ ـ ﴿والراسخون في العلم﴾ وهذه استعارة والمراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوّارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم[١] .

الفَوَائِد : الأولى : روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأُخَر متشابهات﴾ الآية ثم قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم » .

الثانية : قال القرطبي : أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم : أنَّ المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل ، قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال ، وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور[٢] .

الثالثة : آيات القرآن قسمان : محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة ، فإن قيل : كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كلَّه محكمٌ ﴿كتابٌ أُحكمت آياته﴾ وما جاء في الزمر أن القرآن كلَّه متشابهٌ ﴿نزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً﴾ ؟ ! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدده فقوله ﴿أحكمت آياته﴾ بمعنى أنه ليس به عيبٌ، وأنه كلامٌ حقٌّ فصيح الألفاظ ، صحيح المعاني وقوله ﴿كتاباً متشابهاً﴾ بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحُسن ويصدق بعضه بعضاً ، فلا تعارض بين الآيات .

الرابعة : روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياءَ تختلف عليَّ ، قال : ما هو ؟ قال قوله تعالى ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ وقال : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وقال تعالى : ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ وقال ﴿والله ربّنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وفي النازعات ذكرَ خلق السماء قبل خلق الأرض ، وفي فصِّلت ذَكَر خلق الأرض قبل خلق السماء ، وقال : ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى . . فقال ابن عباس : ﴿فلا أنساب بينهم﴾ في النفخة الأولى ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وأما قوله ﴿ما كنا مشركين﴾ ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سموات في يومين ، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين

(١) تلخيص البيان ص ١٧ . (٢) القرطبي ٤/ ٩ .

آخرين فذلك قوله ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فخلقت الأرض وما فيها في أربعة ايام وخلقت السماء في يومين . وقوله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فسمّى نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك . ويحكَ فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله .

* * *

قال الله تعالى :﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا أولادهم. . إلى. .والمستغفرين بالأسحار﴾ من آية (١٠) إلى نهاية آية (١٧)

المناسبة : لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإيمان ، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين ، وبيّن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله ، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا ، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان . وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم ، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد ، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها ، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خيرٌ للأبرار .

اللغة : ﴿تغني﴾ الاغناء : الدفع والنفع ﴿وَقُود النار﴾ الوَقود بفتح الواو الحطبُ الذي توقد به النار وبالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿دأب﴾ الدأب : العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جدَّ فيه واجتهد ثم أُطلق الدأب على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمداً طويلاً صار له عادةً ﴿آية﴾ علامة ﴿فئة﴾ جماعة وسميت الجماعة من الناس فئةً لأنه يُفاء إليها في وقت الشدة ﴿عبرة﴾ العبرة : الاتعاظ ومنه يقال : اعتبر ، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ومنه عبور النهر ، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زُيّن﴾ التزيين : تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿الشهوات﴾ الشهوة : ما تدعو النفس إليه وتشتهيه والفعل منه اشتهى ويُجمع على شهوات ﴿القناطير﴾ جمع قنطار وهو العُقدة الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿المقنطرة﴾ المضعَّفة وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلَّفة وأضعاف مضاعفة قاله الطبري ، وروي عن الفراء أنه قال : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطير[1] ﴿المسوَّمة﴾ المعلّمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجتلب الأنظار وقيل المسوَّمة : الراعية وقال مجاهد وعكرمة : إنها الخيل المطهّمة الحسان[2] ﴿المآب﴾ المرجع يقال : آب الرجل إياباً ومآباً قال تعالى ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ﴿الأسحار﴾ السَّحر : الوقت الذي قبل طلوع الفجر .

سبب النزول : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ، ورجع إلى المدينة جمع اليهود فقال لهم : يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبيّ مرسل ، فقالوا يا محمد : لا يغرنّك من نفسك أنك قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً - يعني جهالاً - لا علم لهم بالحرب ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفتَ أنا نحن الرجال ، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قل للذين كفروا ستُغلبون﴾[1] الآية .

---

(١) القرطبي ٤/ ٣١ . (٢) تفسير الرازي ٧/ ٢١١ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾

قاتلتنا لعرفتَ أنا نحن الرجال ، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قل للذين كفروا ستُغْلبون﴾[1] الآية

التفسير : ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد ، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿من الله شيئاً﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسْجر وتوقد به النار ﴿كدأب آل فرعون﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون ، وصنيعُهم مثلُ صنيعهم ﴿والذين من قبلهم﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿والله شديد العقاب﴾ أي أليم العذاب شديد البطش ، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم ، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء . ﴿قل للذين كفروا﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿ستُغلبون﴾ أي تُهزمون في الدنيا ﴿وتحشرون إلى جهنم﴾ أي تجُمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿قد كان لكم آية﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿في فئتين التقتا﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فئةتقاتل في سبيل الله﴾ أي طائفةٌ مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وأخرى كافرة﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يرونهم مثليهم﴾ أي يرى المؤمنون الكافرين أكثر منهم مرتين ﴿رأي العين﴾ أي رؤية ظاهرةً مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال ، وقيل : المراد يرى الكافرون المؤمنين ضعفيهم في العدد ، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم ، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رأي العين﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوّي بنصره من يشاء ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي لآية وموعظة ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة . ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء ، وأن النصر لا يكون بكثرة العَدد والعتاد ، وإنما يكون بمعونة الله

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٦٨ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٤ .

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

وتأييده كقوله ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال ﴿زُيِّنَ للنـاس حبُّ الشهـوات من النساء﴾ أي حُسِّن إليهم وحُبِّب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات ، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والإلتذاذ بهن أكثر وفي الحديث (ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء)[1] ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿والبنين﴾ وإنما ثنّى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين كما قال القائل :

وإنما أولادنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبَّت الريح على بعضهم لامتنعتْ عيني عن الغَمْض

وقُدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿والقناطير المقنطرة من الذهـب والفضة﴾ أي الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة ، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات ، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيلـه ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خُصَّا بالذكر ﴿والخيـل المسوَّمـة﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿والأنعـام﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿والحرث﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة ﴿والله عنده حسـن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قل أؤنبئكم بخيرٍ مـن ذلكـم﴾ أي قل يا محمد أأخبركم بخيرٍ ممّا زُيِّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ؟ والاستفهام للتقرير ﴿للذين اتقوا عند ربهـم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خالديـن فيهـا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآبـاد ﴿وأزواج مطهـرة﴾ أي منزهةٌ عن الدنس والخبث الحسي والمعنوي ، لا يتغوَّطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ، ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿ورضوانٌ مـن الله﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأيُّ رضوان ، وقد جاء في الحديث (أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) ﴿والله بصيرٌ

(١) أخرجه البخاري .

بالعباد﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء . ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال **﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾** أي آمنا بك وبكتبك ورسلك **﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾** أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار **﴿الصابرين والصادقين والقانتين﴾** أي الصابرين على البأساء والضراء ، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء ، والمطيعين لله في الشدة والرخاء **﴿والمنفقين﴾** أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير **﴿والمستغفرين بالأسحار﴾** أي وقت السحر قُبيل طلوع الفجر .

البَـلاَغَـة : ﴿من الله﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ﴿شيئاً﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أيَّ نفع ولو قليلاً ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه ﴿كذبوا بآياتنا فأخذهم الله﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم ﴿لكم آية﴾ الأصل « آيةٌ لكم » وقدّم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿رضوانٌ من الله﴾ وقوله تعالى ﴿ترونهم﴾ و﴿رأي العين﴾ بينهما جناس الاشتقاق ﴿حب الشهوات﴾ يراد به المشتهيات قال الزمخشري : عبَّر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات ، وتنبيهاً على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ﴿بخير من ذلكم﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ﴿للذين اتقوا عند ربهم﴾ قال أبو السعود : التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم[١] ﴿القناطير المقنطرة﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص .

فَـائِـدَة : الأولى : من هو المزيّن للشهوات ؟ قيل : هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ وتزيين الشيطان : وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل : المزيّن هو الله ويدل عليه ﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وتزيين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر : « اللهم لا صبر لنا على ما زينتَ لنا إلا بك »[٢] .

الثانية : تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، لأن النفس أصفى ، والروح أجمع ، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول ، قال ابن كثير : كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع : هل جاء السحر ؟ فإذا قال نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح[٣] .

* * *

قال الله تعالى :﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو . . إلى . .وفيت كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾
من آية (١٨) إلى نهاية آية (٢٥)

المنَـاسَـبَة : لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله **﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾** أردفه بأنْ بيّن أنَّ دلائل الإيمان ظاهرة جلية فقال **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾** ثم بيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٢١ . (٢) رواه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٧١ .

ارتضاه الله لعباده ، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله ، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً ، وإعراضهم عن قبول حكم الله .

اللغـة : ﴿شهد﴾ الشهادة : الإقرار والبيان ﴿القسط﴾ العدل ﴿الدين﴾ أصل الدين في اللغة : الجزاء ويطلق على الملّة وهو المراد هنا ﴿الإسلام﴾ الاسلام في اللغة : الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأنباري : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشيء لفلان أي خلص له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حاجوك﴾ جادلوك ونازعوك ﴿غرهم﴾ فتنهم ﴿يفترون﴾ يكذبون .

سبب النزول : لمّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبّران من أحبار الشام ، فلما دخلا عليه عرفاه بالصّفة والنعت فقالا له : أنت محمد ؟ قال نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال نعم ، قالا نسألك عن شهادةٍ فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدّقناك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله ﷺ[1]

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

التفسير : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ أي بيّن وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية ، قال الزمخشري : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿والملائكة وأولوا العلم﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قائماً بالقسط﴾ أي حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿العزيز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام ، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام ، إلا بعد أن علموا بالحجج النيّرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر ، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد ، فكانوا ممن ضلّ عن علم ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدّين فقل

(١) القرطبي ٤/ ٤١ والبحر المحيط ٢/ ٤٠١ .

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لهم : أنا عبدٌ لله قد استسلمتُ بكليتي لله ، وأخلصت عبادتي له وحده ، لا شريك له ولا نِدّ ولا صاحبة ولا ولد **﴿ومن اتبعن﴾** أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام ، مستسلمون منقادون لأمر الله **﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين﴾** أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب **﴿أأسلمتم﴾** أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم **﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾** أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور **﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾** أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله بهدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبيﷺ **﴿والله بصير بالعباد﴾** أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها ، روي أن رسول اللهﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا : أسلمنا فقال عليه السلام لليهود : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله ! فقالوا : معاذ الله ، فقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ! فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله عز وجل **﴿وإن تولوا﴾**[١] . **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾** أي يكذبون بما أنزل الله **﴿ويقتلون النبيّين بغير حق﴾** أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله ، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله ، قال ابن كثير : « قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبيّ من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره » **﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾** أي يقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل **﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾** أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجع المهين ، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم : الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقتل الدعاة إلى الله قال تعالى مبيناً عاقبة إجرامهم **﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾** أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات ، ولم يبق لها أثر في الدارين ، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة **﴿وما لهم من ناصرين﴾** أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه . . ثم ذكر تعالى طرفاً من لجاج وعناد أهل الكتاب فقال **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾** أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٢٣ .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ! فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري : يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة ﴿يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته ، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة﴿وهم معرضون﴾تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل ، والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبيﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا : لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما ، فغضبوا فشنَّع تعالى عليهم بهذه الآية[1] ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدةً يسيرة-أربعين يوماً-مدة عبادتهم للعجل ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب ! ! وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأهوال ﴿ووفيت كلُّ نفس ما كسبت﴾ أي نالت كل نفسٍ جزاءها العادل ﴿وهم لا يُظْلمون﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ الجملة معرّفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام .

٢ ـ ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله « أوتوا الكتاب » لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة .

٣ ـ ﴿بآيات الله فإن الله﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس .

٤ ـ ﴿أسلمتُ وجهي﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٥ ـ ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى « الأسلوب التهكمي » حيث نزّل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ وهو أسلوبٌ مشهور .

(١) انظر القصة في صحيح البخاري كتاب التفسير .

فَائِدَة : قال القرطبي : في هذه الآية دليل على فضل العلم ، وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء ، ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ : ﴿وقلْ ربِّ زدني علماً﴾ وقوله ﷺ : (إن العلماء ورثة الأنبياء) وفي حديث ابن مسعود أنَّ من قرأ قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى : عبدي عهد إليَّ عهداً وأنا أحقُّ من وفَى ، أدخلوا عبدي الجنة[1] .

لطيفة : من أطرف ما قرأتُ في بيان فضل العلم تلك المحاورة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد :

علمُ العليمِ وعقلُ العاقلِ اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزتُ غايتَه ... والعقلُ قال : أنا الرحمن بي عُرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له ... بأيّنا اللّه في فرقانه اتّصفا
فبان للعقل أن العلم سيِّدُه ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

* * *

قال الله تعالى :﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . . إلى . .فإن الله لا يحب الكافرين﴾
من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٣٢)

المناسبة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين ، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأمر رسوله بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يعزّ جند الحق وينصر دينه المبين .

اللغة : ﴿اللهمَّ﴾ أصله يا ألله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشدّدة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿تنزع﴾ تسلب ويعبّر به عن الزوال يقال : نزع الله عنه الشر أي أزاله ﴿تولج﴾ الإيلاج : الإدخال يقال : ولج يلج ولوجاً ومنه ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ﴿أمداً﴾ الأمد : غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد ﴿تقاة﴾ تقيَّةً وهي مداراة الإنسان مخافة شره .

سَبَبُ النّزول : أ ـ لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم ، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ! ! هم أعزُّ وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . .﴾ الآية[2] .

ب ـ عن ابن عباس أن « عُبادة بن الصامت » ـ وكان بدرياً تقياً ـ كان له حلفُ مع اليهود ، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة : يا نبيَّ الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ الآية[3] .

(١) رواه الطبراني في الكبير . (٢) القرطبي ٤/ ٥٢ . (٣)روائع البيان ١/ ٣٩٩ .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾

التفسير : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي قل: يا ألله يا مالك كل شيء ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت على كل شيء قدير ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل ، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس ، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع ، والنخلةَ من النواة والنواة من النخلة ، والبيضةَ من الدجاجة والدجاجةَ من البيضة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير ، وقال الطبري : « وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال : يخرج الإنسان الحيَّ والأنعام والبهائم من النطف الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء »[1] ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضييق . . ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري : نُهوا أن يوالوا الكافرين لقرابةٍ بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يُتَصادق بها ويُتَعاشر ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي من يوالِ الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم ، فأظهروا موالاتهم باللسان دون

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٠٩ وللشهيد سيد قطب قول رائع في معنى الآية الكريمة ننقله بإيجاز من الظلال يقول قدّس الله روحه « وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك ، وتلفُّ هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ـ يعني الشمس ـ وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء ، شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار ، وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام ، شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء ، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف . . كذلك الحياة والموت يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج ، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة ، خلايا حيّة منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، هكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري ، ولا يستطيع إنسان أن يدعي أنه هو الذي يصنع من هذا كلِّه شيئاً ، ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ، وإنما هي حركة خفية هائلة تديرها يدُ القادر المبدع اللطيف المدبر » . ظلال القرآن ٣/ ١٧٠ .

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

القلب ، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي « إنّا لنبش في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم » **﴿ويحذِّركم اللهُ نفسه﴾** أي يخوّفكم الله عقابه الصادر منه تعالى **﴿وإلى الله المصير﴾** أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عاملٍ بعمله **﴿قل إن تخفُوا ما في صدوركم أو تُبْدوه يعلَمْه الله﴾** أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية **﴿ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض﴾** أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض **﴿والله على كل شيء قدير﴾** أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره ، وهو تهديد عظيم **﴿يومَ تجد كلّ نفسٍ ما عملتْ من خير مُحْضراً﴾** أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فإن كان عمله حسناً سرّه ذلك وأفرحه **﴿وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾** أي وإن كان عمله سيئاً تمنّى أن لا يرى عمله ، وأحبَّ أن يكون بينه وبين عمله القبيح غايةً في نهاية البعد أي مكاناً بعيداً كما بين المشرق والمغرب **﴿ويحذركم الله نفسه﴾** أي يخوفكم عقابه **﴿والله رءوف بالعباد﴾** أي رحيم بخلقه يحبّ لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله يحبكم الله **﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾** أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن كثير : « هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتّبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله »[1] ثم قال تعالى : **﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾** أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله **﴿فإن تولّوا﴾** أي أعرضوا عن الطاعة **﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾** أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه **﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾** .

البلاغة : جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي :

١ ـ الطباق في مواضع مثل « تؤتي وتنزع » و « تعز وتذل » و « الليل والنهار » و « الحي والميت » و « تخفوا وتبدوا » وفي « خير وسوء » و « محضراً وبعيداً » .

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٧

٢ ـ والجناس الناقص في « مالك الملك » وفي « تحبون ويحببكم » وجناس الاشتقاق بين « تتقوا وتقاة » وبين « يغفر وغفور » .

٣ ـ رد العجز على الصدر في ﴿تولج الليل في النهار﴾ ﴿وتولج النهار في الليل﴾ .

٤ ـ التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

٥ ـ الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ أي من تشاء أن تؤتيه ومثلها وتنزع ، وتعز ، وتذل .

٦ ـ ﴿تولج الليل في النهار﴾ قال في تلخيص البيان : وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس ، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة .

٧ ـ ﴿تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ الحيُّ والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت[1] والله أعلم .

فـائـدة : في الاقتصار على ذكر الخير ﴿بيدك الخير﴾ دون ذكر الشر تعليمٌ لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه خلقاً وتقديراً ﴿قل كلٌ من عند الله﴾ .

تـنبيـه : روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبَّه قال فيحبُّه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضْه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . إلى . . وسبّح بالعشيِّ والإبكار﴾

من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٤١)

المناسبة : لما بيّن تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم ، بيّن علوَّ درجات الرسل وشرف مناصبهم ، فبدأ بآدم أولهم ، وثنَّى بنوح أبي البشر الثاني ، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل ، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيه عيسى عليه السلام ، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص : قصة ولادة مريم ، وقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى ، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير .

اللغة : ﴿اصطفى﴾ اختار وأصله من الصفوة أي جعلهم صفوة خلقه ﴿محرراً﴾ مأخوذ من

(١) هذا على رأي من فسّر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وهو قول الحسن البصري .

الحرية وهو الذي يجعل حراً خالصاً ، والمراد الخالص لله عز وجل الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أعيذها﴾ عاذ بكذا : اعتصم به ﴿وكفلها﴾ الكفالة : الضمان يقال كفَلَ يكفُل فهو كافل ، وهو الذي ينفق على إنسانٍ ويهتم بمصالحه وفي الحديث (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) ﴿المحراب﴾ الموضع العالي الشريف ، قال أبو عبيدة : سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد[١] ﴿حصوراً﴾ من الحصر وهو الحبس ، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات ، وللمفسرين في معناه قولان نختار منهما ما اختاره المحققون : أنه الذي لا يأتي النساء لا لعجز بل للعفة[٢] ﴿عاقر﴾ عقيم لا تلد والعاقر من لا يولد له من رجلٍ أو امرأة ﴿رمزاً﴾ الرمز : الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما قال الطبري : الايماء بالشفتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين[٣] ﴿العشي﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿الإبكار﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قال الشاعر :

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشيّ تذوق

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

التفسير : ﴿إن الله اصطفى آدم﴾ أي اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿ونوحاً﴾ شيخ المرسلين ﴿وآل إبراهيم﴾ أي عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وآل عمران﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم قال القرطبي : وخصَّ هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ذرية بعضُها من بعض﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتُّقى والصلاح ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها «حنَّة بنت فاقود» ﴿ربِّ إني نذرت لك ما في بطني﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿محرراً﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيّتي ﴿فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى﴾ أي لمّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا ربّ إنها أنثى قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم قال تعالى ﴿والله أعلم بما وضعَتْ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أولم

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٣٣ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٩ . وبنحوه في الطبري والقرطبي . (٣) الطبري ٦/ ٣٨٦ .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

تقله ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾ أي ليس الذكر الذي طَلَبْته كالأنثى التي وُهِبتها بل هذه أفضل والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿**وإني سميتها مريم**﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتُها أنثى وإني سميتُها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿**وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾ أي أُجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم . فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿**فتقبلها ربها بقبول حسن**﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس : سلك بها طريق السعداء ﴿**وأنبتها نباتاً حسناً**﴾ أي ربّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿**وكفّلها زكريا**﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها ، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً**﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً ، قال مجاهد : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿**قال يا مريم أنى لك هذا**﴾ ؟ أي من أين لك هذا ؟ ﴿**قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿**هنالك دعا زكريا ربه**﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربّه متوسلاً ومتضرعاً ﴿**قال رب هبْ لي من لدنك ذرية طيبة**﴾ أي أعطني من عندك ولداً صالحاً - وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحةً مباركة ﴿**إنك سميع الدعاء**﴾ أي مجيبٌ لدعاء من ناداك ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب**﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة ﴿**أن الله يبشرك بيحيى**﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿**مصدقاً بكلمةٍ من الله**﴾ أي مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته ، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة « كن » من غير أب ﴿**وسيداً**﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿**وحصوراً**﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفةً وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك . وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنّيناً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء[1] ﴿**ونبياً من الصالحين**﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير : وهذه بشارة

---

(١) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض « إعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنيناً أو لا ذَكَر له ، بل قد أنكر هذا حذّاق المفسرين وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أو يمنع نفسه من الشهوات ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام » انتهى .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[1] ﴿**قال رب أنّى يكون لي غلام**﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿**وقد بلغني الكبر**﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿**وامرأتي عاقر**﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة ، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكلٌ من السببين مانع من الولد ﴿**قال كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر ﴿**قال ربّ اجعل لي آية**﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿**قال آيتُك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً**﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سويٌّ صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿**واذكر ربك كثيراً**﴾ أي اذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة ، فقد منع عن الكلام ولم يُمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿**وسبّح بالعشي والإبكار**﴾ أي نزّه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله . وقيل : المراد صلّ لله ، قال الطبري : يعني عظّم ربك بعبادته بالعشي والإبكار .

البَـــلاَغَــة : ١ ـ ﴿والله أعلم بما وضعتْ﴾ ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود .

٢ ـ ﴿وإني أعيذها﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد .

٣ ـ ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً ، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية .

٤ ـ ﴿فنادته الملائكة﴾ المنادي جبريل وعبّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له لأنه رئيسهم .

٥ ـ ﴿بالعشي والإبكار﴾ بين كلمتي العشيّ والإبكار طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

الفَـــوَائِــد : الأولى : روي أن « حنّة » امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنّت إلى الولد وتمنته وقالت : اللهم إن لك عليَّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر[2] .

الثانية : قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ قال :

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨١ . (٢) تفسير أبي السعود ١/ ٢٣٠

والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها أن النبيﷺ جاع أياماً فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحماً وخبزاً .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك . . إلى . . هذا صراطٌ مستقيم﴾
من آية (٤٢) إلى نهاية آية (٥١)

المناسبة : لمّا ذكر تعالى قصة ولادة «يحيى بن زكريا» من عجوز عاقرٍ وشيخٍ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات ، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول ، والغرضُ من ذكر هذه القصة الردّ على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى ، فذكر ولادته من مريم البتول ليدل على بشريته ، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته ، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات ، وليس له شيء من أوصاف الربوبية .

اللغة : ﴿أنباء﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿نوحيه﴾ الوحي : إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿أقلامهم﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿المسيح﴾ لقبٌ من الألقاب المشرّفة كالصدّيق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك[1] ﴿وجيهاً﴾ شريفاً ذا جاهٍ وقدر ، والوجاهةُ الشرف والقدر ﴿المهد﴾ فراش الطفل ﴿كهلاً﴾ الكهل : ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿الأكمه﴾ الذي يولد أعمى ﴿الأبرص﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداءٌ عُضال .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ

التفسير : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة أي جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصكِ بالكرامات ﴿وطهّرك﴾ من الأدناس والأقذار وبما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أي إلزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه

(١) الكشاف ١/ ٢٧٨ .

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

إليك﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الانباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل **﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾** أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته **﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾** أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم ، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير . . روي أن حنّة حين ولدتها لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها[1] قال ابن كثير : وإنما قدّر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً **﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾** أي بمولودٍ يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب **﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾** أي اسمه عيسى ولقبه المسيح ، ونسبَه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب **﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾** أي سيداً ومعظّماً فيهما **﴿ومن المقربين﴾** عند الله **﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾** أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً قال الزمخشري « ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة »[2] ولا شك أن ذلك غاية في الاعجاز **﴿ومن الصالحين﴾** أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح **﴿قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾** أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ؟ **﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾** أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب **﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخرٍ ولا حاجةٍ إلى سبب، يقول له كن فيكون **﴿ويعلمه الكتاب﴾** أي الكتابة **﴿والحكمة﴾** أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء **﴿والتوراة والإنجيل﴾** أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير : وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا **﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾** أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم **﴿أنّي قد جئتكم بآيةٍ من ربكم﴾** أي بأني قد جئتكم بعلامةٍ تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات ، وآيةُ صدقي **﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾** أي

(١) الطبري ٦/ ٣٥١ . (٢) الكشاف ١/ ٢٧٨ .

ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾

أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير : وكذلك كان يفعل ، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله[1] ، وهذه المعجزة الأولى ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص ، وهذه المعجزة الثانية ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته ، وقد أحيا أربعة أنفس : عازر وكان صديقاً له ، وابن العجوز ، وبنت العاشر ، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره ، وكرر لفظ « بإذن الله » دفعاً لتوهم الألوهية ، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكّون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله ، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال ﴿ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة﴾ أي وجئتكم مصدقاً لرسالة موسى ، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير : وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرّر تأكيداً ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جلّ وعلا ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته ، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ أُطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له ويسمى المجاز المرسل .

٢ ـ ﴿اصطفاك وطهرك واصطفاك﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ « مريم » وهذا من باب الإطناب .

٣ ـ ﴿ولم يمسسني بشر﴾ كنّى عن الجماع بالمسّ كما كنّى عنه بالحرث واللباس والمباشرة .

٤ ـ ﴿ولأحلّ لكم بعض الذي حُرِّم﴾ بين لفظ ﴿أحل﴾ و﴿حُرِّم﴾ من المحسنات البديعية الطباقُ ،

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨٤ .

كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع . وهناك نواحٍ بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية الإطالة .

فـائـدة : جاء التعبير هنا بقوله ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ وفي قصة يحيى ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ والسرُّ في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إيجاد واختراع من غير سببٍ عادي فناسبه ذكر الخلق ، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيخوخة والعقم مانعٌ في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل والله أعلم .

تـنبيـه : قال بعض العلماء: الحكمة في أنَّ الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا « مريم » هي الإشارة من طرفٍ خفي إلى ردّ ما قاله النصارى من أنها زوجته فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أبٍ له ولهذا قال في الآية ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر . . إلى . . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٦٣)

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح ، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام ، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإنَّ الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله « اليهود » على قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء .

اللغة : ﴿أحسَّ﴾ عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الحواريون﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل للحضريات حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قال الشاعر :

فقلْ للحواريات يَبْكينَ غيرنا ... ولا تَبْكنا إلا الكلابُ النوابحُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سمّوا حواريين لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿مكروا﴾ المكر : الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم ، ومكرُ الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكي عن الفراء وغيره ﴿نبتهل﴾ نتضرع في الدعاء ، وأصل الابتهال : الاجتهاد في الدعاء باللعن ، والبهلةُ اللعنة .

سبب النزول : لما قدم وفد نصارى نجران ، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى ، قالوا للرسول ﷺ : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد قال : أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ الآية وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى

(١) انظر الجزء الأول من حاشية الصاوي على الجلالين .

الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك ، فقال : كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم اتخذ الله ولداً ، وأكلكم الخنزير ، وسجودكم للصليب فقالوا : فمن أبوه فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى . . إلى قوله ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة ، فقال بعضهم لبعض : إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية [١] .

* ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾

التفسير : ﴿فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ، ثم أخبر تعالى عن اليهود المتآمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿ومكروا ومكر الله﴾ أي أرادوا قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء دون أن يمس بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهوذا» وسمّي مكراً من باب المشاكلة[٢] ولهذا قال ﴿والله خير الماكرين﴾ أي أقواهم مكراً بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم وفي الحديث (اللهمَّ امكرْ لي ولا تمكر عليَّ) ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعه إلى السماء سالماً دون أذى قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ثم متوفيك بعد ذلك ، وقد ذكره الطبري فقال : وقال آخرون معنى ذلك : إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إيّاك إلى الدنيا[٣] ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال

(١) القرطبي ٤/ ١٠٣ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٨ . (٢) المشاكلة : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى وقد تقدم .
(٣) الطبري ٦/ ٤٥٨ وأما قول بعض المفسرين انه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع وقول بعضهم المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد ردّه المحققون قال القرطبي : « والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس » .

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

الحسن : طهّره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة**﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وقال في تفسير الجلالين : ﴿الذين اتبعوك﴾ أي صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿**فوق الذين كفروا**﴾ وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ﴿**ثم إليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون**﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿**فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة**﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لملتك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي ، وبالآخرة بنار جهنم ﴿**وما لهم من ناصرين**﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿**وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم**﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملةً غير منقوصة ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾ أي لا يحب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده ؟ ﴿**ذلك نتلوه عليك**﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿**من الآيات والذكر الحكيم**﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم**﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب ـ وهو في بابه غريب ـ كشأن آدم ﴿**خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ أي خلقَ آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان ، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم**﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿**فقل تَعالَوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**﴾ أي هلمّوا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحُسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي ﴿**ثم نبتهلْ فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول : اللهم العنْ الكاذب منا في شأن عيسى ، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس أنه قال « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » ، قال أبو

حيان : « وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته »[١] ثم قال تعالى ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وما من إله إلا الله﴾ أي لا يوجد إله غير الله ، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿فلما أحسَّ﴾ قال أبو حيان : فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يُعلم ويفطن به فإطلاق الحسّ عليه من نوع الاستعارة .

٢ ـ ﴿والله خير الماكرين﴾ بين لفظ مكروا والماكرين جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة .

٣ ـ ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة .

٤ ـ ﴿الحق من ربك﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام .

٥ ـ ﴿فلا تكن من الممترين﴾ هو من باب الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت أفاده أبو السعود .

لطيفة : قال صاحب البحر المحيط : سأل رجل الجنيد فقال : كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر وقد عاب به غيره ، فقال : لا أدري ما تقول ولكن أنشدني فلان الظهراني :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

ثم قال له : قد أجبتك إن كنت تعقل[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . إلى . . والله ذو الفضل العظيم﴾ من آية (٦٤) إلى نهاية آية (٧٤)

المنَاسَبَة : لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح ، دعا الفريقين « اليهود والنصارى » إلى التوحيد ، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما زعم كل من الفريقين ، ثم بيّن أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأمته .

اللغَة : ﴿سواءٍ﴾ السَّواء : العدل والنَّصف قال أبو عبيدة : يقال قد دعاك إلى السَّواء فاقبل منه قال زهير :

أروني خطةً لا ضيم فيها يُسوّى بيننا فيها السَّواء

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٨٠ . (٢) البحر المحيط ٢/ ٤٧٢ .

﴿أولى﴾ أحقّ ﴿ودّت﴾ تمنت ﴿تلبسون﴾ اللّبْس : الخلط يقال : لَبس الأمرُ عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وجه النهار﴾ أوله سمّي وجهاً لأن أول ما يواجه من النهار أوله قال الشاعر :

من كـانَ مسروراً بمقتل مالك فليأتِ نِسوتنا بوجهِ نهار[1]

سَبَبُ النّزول : روي عن ابن عباس أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقالت اليهود : ما كان إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانياً فأنزل الله ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ الآية[2] .

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ

التفسِير : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً ﴿ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيراً وعيسى ، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا ، روي أن الآية لمّا نزلت قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله ، فقال ﷺ أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال : نعم فقال النبي ﷺ هو ذاك ﴿فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحّدون مسلمون ، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ أي والحال أنه ماحدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرونٍ كثيرة فكيف يكون من أهلها ؟ ﴿أفلا تعقلون﴾ بطلان قولكم ؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف يقول بذلك عاقل ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم ؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة ؟ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله يعلم الحقَّ من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك ، قال أبو حيان : « وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه : اسمع فإني أعلم مالا تعلم »[3] ثم أكذبهم الله تعالى

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ٩٧ . (٢) مجمع البيان ٢/ ٤٥٦ . (٣) البحر المحيط ٢/ ٤٨٦ .

﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

في دعوى إبراهيم فقال ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية ، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى ،وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسى ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيّم ﴿وما كان من المشركين﴾ أي كان مسلماً ولم يكن مشركاً ، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزير بن الله ، والمسيح بن الله ، وردٌّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿وهذا النبي﴾ أي محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿والله وليُّ المؤمنين﴾ أي حافظهم وناصرهم . . ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله ﴿ودَّت طائفةٌ من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ أي تمنَّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يُضاعف به عذابهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ما يفطنون لذلك ، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وأنتم تشهدون﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يا أهل الكتاب لم تَلْبِسون الحقَّ بالباطل﴾ أي لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشُّبَه والتحريف والتبديل ؟ ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك ، ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم ، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ قال ابن كثير : وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصةٍ وعيبٍ في دين المسلمين[1] ﴿واكفروا آخره﴾ أي اكفروا بالإسلام

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٩١ .

وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

آخر النهار ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ أي لعلهم يشكّون في دينهم فيرجعون عنه ﴿**ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**﴾ هذا من تتمة كلام اليهود حكاه الله عنهم والمعنى : لا تصدقوا ولا تظهروا سركم وتطمئنوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم ﴿**قل إن الهدى هدى الله**﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله ، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين ، والجملة اعتراضية ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿**أن يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم**﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض : لا تصدّقوا إلا لمن تبع دينكم ، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقوه وإلا فكذبوه ، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم ، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم ، فإذا أقررتم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة ، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿**قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**﴾ أي قل لهم يا محمد أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿**يختص برحمته من يشاء**﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحدُّ ولا يُمنع.

البَـلاَغَـة : جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي : **المجازُ** في قوله ﴿**إلى كلمة**﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع ، والتشبيهُ في قوله ﴿أرباباً﴾ حيث شبّه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالربّ المستحق للعبادة ، والطباقُ في قوله ﴿الحق بالباطل﴾ **والجناس التام في قوله** ﴿يُضلونكم وما يُضلون﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أولى﴾ و﴿ولي﴾ والتكرار في عدة مواطن ، **والحذف في عدة مواطن**[1] .

فَـائِـدَة : كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى « هرقل » ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده ، ونصُّ الكتاب كما هو في صحيح مسلم « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من اتّبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ تسلَم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاحين والخدم - و﴿**يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾[2] .

(١) نقلاً عن البحر المحيط . (٢) انظر صحيح البخاري ومسلم .

قال الله تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . . إلى . . بعد إذ أنتم مسلمون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٠)

المناسبة : لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب ، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر ، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين : المالية والدينية ، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه ، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل .

اللغة : ﴿قنطار﴾ القنطار المالُ الكثير وقد تقدم ﴿قائماً﴾ ملازماً ومداوماً على مطالبته ﴿الأميّين﴾ المراد بهم العرب وأصلُ الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب والعربُ كانوا كذلك ﴿يلوون﴾ من اللّيّ وهو اللّف والفتل تقول : لويتُ يده إذا فتلتها والمراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرّفة ﴿لا خلاق﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿ربانيّين﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الربّ قال الطبري معناه : كونوا حكماء علماء[1] .

سبب النزول : عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجلٍ من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ هل لك بيّنة ؟ قلت : لا ، قال لليهودي : احلفْ قلت : إذاً يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﴿إن الذين يشترون بعهد الله . .﴾[2] الآية .

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ

التفسير : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أدّاه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي إلا إذا كنت ملازماً له ومُشهداً عليه ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميّين سبيل﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب - روي أن اليهود قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ والخلق لنا عبيد ، فلا سبيل لأحدٍ علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا ، وقيل إنهم قالوا إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون ، روي أنهم لما قالوا ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ قال نبي الله ﷺ : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت

(١) الطبري ٦/ ٥٤٠ . (٢) القرطبي ٤/ ١٢٠ .

لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قدميَّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر[1] ، ثم قال تعالى **﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾** أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكنْ من أدّى الأمانة منهم وآمن بمحمدﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾** أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل **﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾** أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى **﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾** أي لا يكلمهم كلام أنس ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة **﴿ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** أي لا يطهرهم من أوضار الأوزار ، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي **﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾** أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس : يحرفونه بتأويله على غير مراد الله **﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾** أي لتظنوا أن هذا المحرّف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان **﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾** أي ينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله **﴿وهم يعلمون﴾** أنهم كذبوا وافتروا على الله . ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه **﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾** أي لا يصح ولا ينبغي لأحدٍ من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة **﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾** أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله . والنفيُ في مثل هذه الصيغة **﴿ما كان﴾** إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوتُه والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه ؟ **﴿ولكن كونوا ربانيّين﴾** أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيّين قال ابن عباس : حكماء علماء حلماء والمعنى : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله **﴿بما كنتم تعلّمون الناس الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾** أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إياه **﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيّين أرباباً﴾** أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله -

---

(١) القرطبي ٤/ ١١٩

ملائكة أو أنبياء ـ لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله ، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله ؟ والاستفهام إنكاري تعجبي .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿ذلك بأنهم قالوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد .

٢ ـ ﴿ليس علينا في الأميين سبيلٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل .

٣ ـ ﴿يشترون بعهد الله﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال .

٤ ـ ﴿ولا يكلمهم الله﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها .

٥ ـ ﴿ولا ينظر إليهم﴾ قال الزمخشري : مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسانٍ التفت إليه وأعاره نظر عينيه .

٦ ـ بين لفظ ﴿اتقى﴾ و﴿المتقين﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿الكفر﴾ و﴿مسلمون﴾ طباقٌ .

فَـائِـدَة : روي أ أن رجلاً قال لابن عباس : « إنّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فماذا تقولون ؟ قالوا نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم » ذكره ابن كثير .

* * *

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة . . . إلى وما لهم من ناصرين﴾
من آية (٨١) إلى نهاية آية (٩٠)

المُنَـاسَـبَة : لمّا ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه ، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به ، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته ، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره ، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته ؟ ثم ذكر تعالى أن الايمان بجميع الرسل شرط لصحة الايمان وبيَّن أن الاسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه .

اللغَـة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إصري﴾ عهدي وأصله في اللغة الثقل قال الزمخشري : وسمي إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد[1] ﴿الفاسقون﴾ الخارجون عن

(١) الكشاف ١/ ٢٩٠ .

طاعة الله ﴿طوعاً﴾ انقياداً عن رغبة ﴿كَرْهاً﴾ إجباراً وهو كاره ﴿الأسباط﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿ يُنظرون ﴾ يمهلون يقال : أنظره يعني أمهله والنظرة الإمهال ﴿الخاسرون﴾ الخسران : انتقاص رأس المال يقال : خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿الضالون﴾ التائهون في مهامه الكفر .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة فإني قد ندمت ؟ فنزلت الآية ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا . . . إلى قوله إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم[1] .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾

التفسير : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيّين ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال الطبري: المعنى لمهْما آتيتكم أيها النبيّون من كتاب وحكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ أي ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿ لتؤمننّ به ولتنصرنه﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي ؟ ﴿قالوا أقررنا﴾ أي اعترفنا ﴿قال فاشهدو ا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿ فأولئك هم الفاسقون﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيبتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟﴿وله أسلم من في السموات والأرض﴾أي ولله استسلم وانقاد وخضع أهل السموات والأرض ﴿طوعاً وكرهاً﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة : المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك[2] قال ابن كثير : فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعاً ، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع[3] ﴿وإليه يُرجعون﴾ أي

(١) اخرجه النسائي وانظر القرطبي ٤/ ١٢٩ . (٢) الطبري ٦/ ٥٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٩٧ .

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم

يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله ﴿**قل آمنا بالله وما أنزل علينا**﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿**وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط**﴾ أي آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي ، والأسباطُ هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿**وما أوتي موسى وعيسى**﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿**والنبيون من ربهم**﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿**لا نفرق بين أحدٍ منهم**﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً ، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه**﴾ أي يطلب شريعةغير شريعةالإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿**وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ أي مصيره إلى النار مخلداً فيها ﴿**كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم**﴾ استفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿**وشهدوا أن الرسول حق**﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿**وجاءهم البينات**﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم ،وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم[1] ﴿**أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿**خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون**﴾ أي ماكثين في النار أبد الآبدين ،لا يُفتّر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿**إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً**﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿**لن تقبل توبتهم**﴾ أي لا تقبل

(١) الطبري ٦/ ٥٧٥

مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وأولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي ، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم موجع ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

البلاغة : ١ ـ الالتفات ﴿لما آتيتكم﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله ﴿ميثاق النبيّين﴾ .

٢ ـ بين لفظ ﴿اشهدوا﴾ و﴿الشاهدين﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كفروا﴾ و ﴿كفراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ الطباق بين ﴿طوعاً﴾ و﴿كرهاً﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإيمان .

٤ ـ ﴿وأولئك هم الضالون﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ .

٥ ـ ﴿وما أوتي موسى وعيسى والنبيّون﴾ هو من باب عطف العام على الخاص .

٦ ـ ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة .

فائدة : الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله ﴿إلا الذين تابوا بعد ذلك﴾ .

٢ ـ وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله ﴿كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ .

٣ ـ وقسم لم يتب أصلاً ومات على الكفر وإليهم الإشارة بقوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ .

تنبيه : روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال فيقول: نعم فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تشرك) .

قال الله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . . إلى . . آياته لعلكم تهتدون﴾

من آية (٩٢) إلى نهاية آية (١٠٣)

المناسبة : لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة ، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدي نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك ، ذكر هنا ـ استطراداً ـ ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة ، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام ، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشتيت الشمل .

اللغة : ﴿البر﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿حلاً﴾ حلالاً وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿اسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿بكة﴾ اسم لمكة فتسمى « بكة » و « مكة » سميت بذلك لأنها تبك أي تدق أعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مباركاً﴾ البركة : الزيادة وكثرة الخير ﴿مقام إبراهيم﴾ محل قيام ابراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عِوَجاً﴾ العِوَج : الميل قال أبو عبيدة : في الدين والكلام والعمل ، وبالفتح عَوَج في الحائط والجذع ﴿يعتصم﴾ يتمسك ويلتجيء وأصله المنع قال القرطبي : وكل متمسك بشيء معتصمٌ وكل مانعٍ شيئاً فهو عاصم[1] ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ﴿شفا﴾ الشَّفا : حرف كل شيء وحده ومثله الشفير ، وشفا الحفرة : حرفها قال تعالى ﴿على شفا جرف هارٍ﴾

سبب النزول : يروى أنّ « شاس بن قيس » اليهودي مرَّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، ثم أمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكّرهم يوم « بُعاث » وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار ـ وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ـ ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاحَ السلاحَ ، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم) ؟ فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيداً من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾[2] الآية .

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا

التفسير : ﴿لن تنالوا البِرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة

(١) القرطبي ٤/ ١٥٦ . (٢) أسباب النزول ص ٦٦ والكشاف ١/ ٣٠١ .

لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ أي وما تبذلوا من شيء في سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل ﴿إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه﴾ أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبةً لهم على معاصيهم ﴿من قبل أن تُنزَّل التوراة﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلُوها إن كنتم صادقين﴾ أي قل لهم يا محمد ائتوني بالتوراة واقرءوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم قال الزمخشري : وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله فلما حاجّهم بكتابهم وبكّتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة ، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ [١] ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قل صدق الله﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة كلها ﴿وما كان من المشركين﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية ، وفيه تعريض بإشراكهم ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مباركاً وهدى للعالمين﴾ أي وضع مباركاً كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم ، ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مقام إبراهيم﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، وفيه زمزم والحطيم ، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود ، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة للمسلمين ؟ ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرَم بدعوة الخليل ابراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿ومن كفر فإن الله غني عن

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٥ .

وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

العالمين﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين . وعبّر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس : من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه[١] ، ثم أخذ يبكّت أهل الكتاب على كفرهم فقال **﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾** أي لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه **﴿والله شهيد على ما تعملون﴾** أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها **﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾** أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق ، وتمنعون من أراد الإيمان به ؟ **﴿تبغونها عوجاً﴾** أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجّة ، وذلك بتغيير صفةالرسول ،والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً **﴿وأنتم شهداء﴾** أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾** تهديد ووعيد ، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين : الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾** أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب **﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾** أي يصيرّوكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام **﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾** إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزّل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌ بين أظهركم ؟ **﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾** أي من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق ، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾** أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود : « هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر »[٢] والمراد بالآية **﴿حق تقاته﴾** أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتناب جميع معاصيه **﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾** أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٠٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٣٠٤ .

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

تفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة نوجزها فيما يلي :

١ ـ ﴿قل فأتوا بالتوراة﴾ الأمر للتبكيت والتوبيخ للدلالة على كمال القبح .

٢ ـ ﴿للذي ببكة﴾ أي للبيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى .

٣ ـ ﴿ومن كفر﴾وضع هذا اللفظ « موضع ومن لم يحج »تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه قال أبو السعود : « ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الإسمية الدالة على الثبات والاستمرار ، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس ، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص ، والإبهام ثم التبيين ، والإجمال ثم التفصيل »[١] .

٤ ـ ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ شبّه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاةُ في كلٍ .

٥ ـ ﴿شفا حفرة﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة وهوّة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم .

تَـنْبِيــه : وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب :

الشبهة الأولى : أنهم قالوا للنبي ﷺ إنك تدّعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيح لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل﴾ الآية .

الشبهة الثانية : قالوا إن « بيت المقدس » قبلة جميع الأنبياء وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف تترك يا محمد التوجه اليه ثم تزعم أنك مصدّق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله ﴿إن أول بيت

(١) أبو السعود ١/ ٢٥٥ .

وضع للناس للذي ببكة﴾ الآية .

* * *

قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . إلى قوله . . بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٢)

المناسبة : لما حذّر تعالى من مكايد أهل الكتاب ، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم ، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف ، ثم ذكر ما حلّ باليهود من الذل والصَّغار بسبب البغي والعدوان .

اللغة : ﴿أمة﴾ طائفة وجماعة ﴿البينات﴾ الآيات الواضحات ﴿المعروف﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿المنكر﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿الأدبار﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال : ولاه دبره أي هرب من وجهه ﴿ثقفوا﴾ وجدوا وصودفوا ﴿حبلٍ من الله﴾ الحبل معروف والمراد به هنا: العهد وسمي حبلاً لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿باءوا﴾ رجعوا ﴿المسكنة﴾ الفقر .

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

التفسير : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال والمعنى أما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ : أكفرتم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون ﴿ولله ما في السموات وما في

تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

الأرض﴾ أي الجميع ملكٌ له وعبيد **﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾** أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال **﴿أُخرجت للناس﴾** أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم . روى البخاري عن أبي هريرة **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** قال : خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام **﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال « من سرَّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها »[1] ثم قال تعالى **﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾** أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدّقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة **﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام ، والكثرةُ الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ، **﴿لن يضروكم إلا أذى﴾** أي لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سبٍّ وطعن **﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾** أي ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً **﴿ثم لا يُنصرون﴾** أي ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لاينصرون والجملة استئنافية **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا﴾** أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه **﴿إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس﴾** أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس : بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس **﴿وباءوا بغضبٍ من الله﴾** أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله **﴿وضربت عليهم المسكنة﴾** أي لزمتهم الفاقة والخشوع **فهي** محيطة بهم من جميع جوانبهم **﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾** أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار ، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً **﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى .

---

(١) مختصر ابن كثير ١ / ٣١١ .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٢ ـ ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم .

٣ ـ ﴿تبيضُّ وجوه وتسود وجوه﴾ بين كلمتي ﴿تبيض﴾ و ﴿تسود﴾ طباق .

٤ ـ ﴿ففي رحمة الله﴾ مجاز مرسل أطلق الحالَّ وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة .

٥ ـ ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة

٦ ـ ﴿وباءُوا بغضبٍ﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

فَـائِـدَة : قوله تعالى ﴿ ثم لا يُنصرون﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري : « وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر ، ولو جزم لكان نفي النصر مقيداً لقتالهم بينما النصر وعدٌ مطلق »[1]

تَـنْبِيـه : الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولابن تيمية رحمه الله رسالة قيمة اسمها « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة . . إلى . . إن الله بما يعملون محيط﴾
من آية (١١٣) إلى نهاية آية (١٢٠)

المَنَـاسَبَة : لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة ، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً ، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونبّه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين .

اللغَـة : ﴿آناء﴾ أوقات وساعات مفردها إنيَ على وزن مِعَى ﴿يكفروه﴾ يجحدوه من الكفر بمعنى الجحود ، سمي منعُ الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صر﴾ الصِرُّ : البرد الشديد قاله ابن

(١) الكشاف ٣٠٨/١ باختصار .

عباس وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حرث﴾ زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزرع والبذر ﴿بطانة﴾ بطانة الرجل : خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبّه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لا يألونكم﴾ أي لا يقصّرون قال الزمخشري : يقال ألاَ في الأمر يألو إذا قصّر فيه ﴿خبالاً﴾ الخبال : الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عنتّم﴾ العنت : شدة الضرر والمشقة ﴿الأنامل﴾ أطراف الأصابع .

سَبَبُ النّزول : لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم : لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾[1] الآية .

* لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ

التفسِير : ﴿ليسوا سواءً﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء ، وهنا تمّ الكلام ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ أي يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي يؤ منون بالله على الوجه الصحيح ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين ﴿وأولئك من الصالحين﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر المتقين ، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون في عذاب جهنم ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا بقصد الثناء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي أصابت تلك

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٦٨ .

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا

الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به ؛ فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه ﴿**وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب . ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم**﴾ أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿**لا يألونكم خبالاً**﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿**ودوا ما عنتم**﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد ﴿**قد بدت البغضاء من أفواههم**﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿**وما تخفي صدورهم أكبر**﴾ أي وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه ﴿**قد بينّا لكم الآيات**﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿**إن كنتم تعقلون**﴾ أي إن كنتم عقلاء . وهذا على سبيل الهزّ والتحريك للنفوس كقولك إن كنت مؤمناً فلا تؤذ الناس وقال ابن جرير المعنى : إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه . ثم بيّن سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿**ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم**﴾ أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم . تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة ﴿**وتؤمنون بالكتاب كله**﴾ أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم . فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿**وإذا لقوكم قالوا آمنا**﴾ أي وهذا من خبثهم إذ يظهرون أمامكم الإيمان نفاقاً ﴿**وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ**﴾ أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم . وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين ﴿**قل موتوا بغيظكم**﴾ هو دعاء عليهم أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا[1] ﴿**إن الله عليم بذات الصدور**﴾ أي إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين . ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم**﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرةٍ وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم ﴿وإن تصبكم

---

(١) هذا قول الطبري وكثير من المفسرين وقيل المراد منه : التعريع والإغاظة والمعنى انهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في القرطبي ١ / ١٨٣ .

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾

سيئة يفرحوا بها﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجدبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم ، فبيّن تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً**﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم ، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿**إن الله بما يعملون محيط**﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدبّرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة .

البَـلاغَـة : ١ ـ ﴿من أهل الكتاب أمة﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يتلون آيات الله﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يسجدون﴾ .

٢ ـ ﴿وأولئك من الصالحين﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل .

٣ ـ ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي شبّه ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطاماً .

٤ ـ ﴿لا تتخذوا بطانة﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصّه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في تلخيص البيان[1] .

٥ ـ ﴿عضُّوا عليكم الأنامل﴾ قال أبو حيان : يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبّر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين[2]

٦ ـ في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة ، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظلمهم﴾ و ﴿يظلمون﴾ وفي ﴿الغيظ﴾ و ﴿غيظكم﴾ وفي ﴿تؤمنون﴾ و ﴿آمنا﴾ .

لطيفـة : عبّر بالمسِّ في قوله ﴿إن تمسسكم حسنة﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مسّاً خفيفاً وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون وهذا من أسرار بلاغة التنزيل ، نقلاً عن حاشية الكشاف

قال الله تعالى : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال . . إلى . . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾

من آية (١٢١) إلى نهاية آية (١٣٢)

(١) تلخيص البيان ص ٢١ . (٢) البحر المحيط ٣/ ٤١ .

المنَاسَبَة : يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة ، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال ، والآيات تتحدث عن غزوة « أحد » بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليذكّرهم بنعمته تعالى عليهم لمّا نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العَدَد والعُدَد ، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية ، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذّر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في همّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تثبيط المنافقين لهم وعلى رأسهم أبي بن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة ، روى الشيخان عن جابر قال « فينا نزلت ﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ قال نحن الطائفتان : بنو حارثة ، وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿والله وليهما﴾ ».

اللغَة : ﴿غدوت﴾ خرجت غُدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿تفشلا﴾ الفشل : الجبن والضعف ﴿تبوىء﴾ تنزل يقال : بوأته منزلاً وبوأت له منزلاً أي أنزلته فيه وأصل التبوىء اتخاذ المنزل ﴿أذلة﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿فورهم﴾ الفور : السرعة وأصله شدة الغليان من فارتْ القدر إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول : من فوره أي من ساعته ﴿مسوَّمين﴾ بفتح الواو بمعنى معلَّمين على القتال وبكسرها بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء ﴿طرفاً﴾ طائفة وقطعة ﴿يكبتهم﴾ الكبتُ : الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿خائبين﴾ الخيبة : عدم الظفر بالمطلوب .

سَبَبُ النّزول : ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشُجَّ في رأسه ، فجعل يسلِتُ الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟ فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

التّفسِير : ﴿وإذ غدوتَ من أهلك﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك ﴿تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أي تنزّل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿والله سميعٌ عليم﴾ أي سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما « بنو سلمة » و « بنو حارثة » وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل « عبد الله بن أبي » بثلث الجيش وقال : علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فهمَّ الحيان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿والله وليهما﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم ، ثم ذكّرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عمّا

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ

أصابهم من الهزيمة يوم أحد فقال ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدد ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي اشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿بلى أن تصبروا وتتقوا﴾ بلى تصديق للوعد أي بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أي يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين﴾ أي يزدكم الله مدداً من الملائكة معلَّمين على السلاح ومدربين على القتال[1] ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً ﴿ولتطمئنّ قلوبكم به﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العَدَد والعُدَد ، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده ، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿العزيز الحكيم﴾ أي الغالب الذي لا يغلب في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، ويهدم ركناً من أركان الشرك ﴿أو يكبتهم﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم . وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين وأعز الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة أحد ، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشُج وجهه الشريف قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟ ! فنزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم ، أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من

(١) وقيل معنى مسوِّمين : أي معلمين بعلامة قال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ، انظر الطبري والكشاف .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

يشاء والله غفور رحيم﴾ أي له جل وعلا ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ هذا نهيٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير : كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن : إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي ! فإن قضاه وإلاّ زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً[1] ﴿واتقوا الله﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ أي اطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿إذ تقول﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية باستحضار صورتها في الذهن .

٢ ـ ﴿أن يمدكم ربكم﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم أفاده أبو السعود .

٣ ـ ﴿يغفر ويعذّب﴾ بينهما طباق.

٤ ـ ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ جناس الاشتقاق.

٤ ـ ﴿لا تأكلوا الربا﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يئول إليه فهو مجاز مرسل .

تـنبيـه : ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيد ولا للشرط ، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية ، وللتشنيع عليهم بأنَّ في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة قال أبو حيان : « نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالنزر اليسير مال المدين ، وأشار بقوله ﴿مضاعفة﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام ، والربا محرم بجميع أنواعه ، فهذه الحال ليس قيداً في النهي »[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . إلى . . وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ من آية (١٣٣) إلى نهاية آية (١٤٨)

المنـاسـبة : لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣١٨ . (٢) البحر المحيط ٣/ ٥٤ .

بدر ، عقّبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله ، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أُحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ، ثم بيّن أن الابتلاء سنة الحياة ، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يُدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين ، ثم توالت الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أُحد .

اللغــة : ﴿وسارعوا﴾ بادروا ﴿السراء﴾ الرخاء ﴿الضرّاء﴾ الشدة والضيق ﴿والكاظمين﴾ كظم الغيظ : ردّه في الجوف يقال : كظم غيظه أي لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وشد رأسها ﴿فاحشة﴾ الفاحشة : العمل الذي تناهى في القبح ﴿خلت﴾ مضت ﴿سنن﴾ السنن : جمع سنة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سنة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿قَرْح﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء : هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه(١) ،وأصل الكلمة الخلوص ومنه ماءٌ قُراح ﴿نداولها﴾ نصرّفها والمداولة : نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال : تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وليمحّص﴾ التمحيص : التخليص يقال: محصته إذا خلّصته من كل عيب وأصله في اللغة : التنقية والإزالة ﴿ويمحق﴾ المحق : نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أعقابكم﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال : انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مؤجلاً﴾ له وقت محدّد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وكأين﴾ كم وهي للتكثير وأصلها أيّ دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿ربيون﴾ جمع ربّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل : نسبة إلى الربّة وهي الجماعة ﴿استكانوا﴾ خضعوا وذلّوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد .

* وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ

التفسير : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿وجنةٍ عرضها السموات والأرض﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض كما قال في سورة « الحديد » ﴿عرضُها كعرض السماء والأرض﴾ والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها ؟ ﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت للمتقين للّه ﴿الذين ينفقون في السراء والضرّاء﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿والعافين عن الناس﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي ارتكبوا ذنباً

---

(١) القرطبي ٤/٢١٧ .

وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ

قبيحاً كالكبائر[1] ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبيان أن الذنوب ـ وإن جلَّت ـ فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ونعم أجر العاملين﴾ أي نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله . ثم ذكر تعالى تتمة تفصيل غزوة أحد بعد تمهيد مبادىء الرشد والصلاح فقال ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هذا بيان للناس﴾ أي هذا القرآن[2] فيه بيانٌ شاف للناس عامة ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة ،وإنما خصَّ المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس ، ثم أخذ يسليهم عمّا أصابهم من الهزيمة في وقعة أُحد فقال ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتلٍ أو هزيمة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أُحد فقد أبليتم فيهم يوم بدر ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ﴿إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرح مثله﴾ أي إن أصابكم قتلٌ أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي الأيام دول ،يوم لك ويوم عليك ، ويوم تُساء ويوم تُسر ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد

(١) قال ابن عباس : الفاحشة الزنا وظلم النفس ما دونه من النظر واللّمسة .

(٢) اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين .

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ

ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخذلوا عن نبيه يوم أُحد ﴿وليمحّص الله الذين آمنوا﴾ أي ينقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص ؟ ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد ؟ قال الطبري المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولمّا يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه[1]! ! ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته ، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا ، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون : إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ليس محمد إلا رسول مضت قبله رسل ، والرسل منهم من مات ومنهم من قُتل ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم ؟ ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله ، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفسٍ أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله﴾ أي بإرادته ومشيئته ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ أي كتب لكل نفسٍ أجلها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجبنُ لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها وليس له في الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم ، فبيّن تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبذولة للبر والفاجر ﴿ومن يرد

---

(١) تفسير الطبري .

ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزدْ له في حرثه﴾ **﴿وسنجزي الشاكرين﴾** أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾** أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون[1] وعُبَّاد صالحون قاتلوا فقُتل منهم من قتل **﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾** أي ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح **﴿وما ضعفوا﴾** عن الجهاد **﴿وما استكانوا﴾** أي ما ذلّوا ولا خضعوا لعدوهم **﴿والله يحب الصابرين﴾** أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله **﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾** أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله **﴿وإسرافنا في أمرنا﴾** أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك **﴿وثبت أقدامنا﴾** أي ثبتنا في مواطن الحرب **﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾** أي انصرنا على الكفار **﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾** أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها **﴿والله يحب المحسنين﴾** أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته ، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعارا بفضله وأنه المعتد به عند الله .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - **﴿عرضها السموات والأرض﴾** أي كعرض السموات والأرض حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه يسمى هذا « التشبيه البليغ » .

٢ - **﴿سارعوا إلى مغفرة﴾** من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة .

٣ - **﴿السراء والضراء﴾** فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية .

٤ - **﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾** استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر .

٥ - **﴿أولئك جزاؤهم مغفرة﴾** الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل .

---

(١) ذهب الطبري إلى أن معنى ﴿ربيون كثير﴾ أي جموع كثيرة وهذا قول قتادة وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون .

٦ - ﴿ونعم أجر العاملين﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك .

٧ - ﴿وليعلم الله﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿نداولها﴾ فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة ، والسرُّ في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله .

٨ - ﴿وما محمد إلا رسول﴾ قصر موصوف على صفة .

٩ - ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه ، فشبّه سبحانه الرجوع في الإرتياب بالرجوع على الأعقاب[١] .

الفَـوَائِـد : الأولى : في هذه الآيات الكريمة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب ، وكلٌ منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر .

الثانية : قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام .

الثالثة : تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟ قال ابن عباس : كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض[٢] .

الرابعة : كتب هرقل إلى النبيﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال عليه السلام : (سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار)[٣] .

الخامسة : أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ و﴿سابقوا إلى مغفرة﴾ ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وأما لعمل الدنيا فأمر بالهوينى ﴿فامشوا في مناكبها﴾ ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾ فتدبر السرّ الدقيق.

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا . . إلى . . أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾

من آية (١٤٩) إلى نهاية آية (١٥٨)

المَنَـاسَـبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أُحد وما فيها من العظات والعبر ، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة ، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين .

اللغَـة : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً وأصله القوة ومنه قيل للوالي سلطان ﴿مثوى﴾ المثوى :

(١) تلخيص البيان ص ٢١ . (٢) البحر المحيط ٣/٥٨ . (٣) أخرجه أحمد .

المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تحسونهم﴾ تقتلونهم قال الزجاج : الحسُّ الإستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس قال الشاعر :

حسسناهم بالسيف حساً فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبدّدوا

﴿تُصعدون﴾ الإصعاد : الذهاب والإبعاد في الأرض ، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض ، والصعود يكون في ارتفاع ﴿ لا تلوون﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من ليّ العنق للإلتفات ﴿أخراكم﴾ آخركم ﴿أثابكم﴾ جازاكم ﴿أمنةً﴾ أمناً واطمئناناً ﴿يغشى﴾ يستر ويغطي ﴿وليمحّص﴾ التمحيص : التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿استزلّهم﴾ أوقعهم في الزلّة وهي الخطيئة ﴿غزّى﴾ جمع غازٍ وهو الخارج في سبيل الله .

سَبَبُ النّزول : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أُحد ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فأنزل الله ﴿ولقد صدقكم الله وعده . . . إلى قوله منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أُحد[1] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾

التفسِير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ترجعوا إلى الخسران ، ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أُحد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بل اللهُ مولاكم﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره ، ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفزع ﴿بما أشركوا بالله ما لم يُنزّل به سلطاناً ﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿ ومأواهم النار﴾ أي مستقرهم النار ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم ، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أي وفى الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٢ .

وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ

تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه ﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر**﴾ أي حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿**وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون**﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم ، روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم : لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير ، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في جوههم من الرماة فانهزم المشركون ، فلما رأى الرماة ذلك قالوا : الغنيمة الغنيمةَ ونزلوا لجمع الأسلاب ، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين فذلك قوله تعالى ﴿**من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾ أي من بعد النصر ﴿**منكم من يريد الدنيا**﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل ﴿**ومنكم من يريد الآخرة**﴾ أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم « عبد الله بن جبير » ثم استشهدوا ﴿**ثم صرفكم عنهم ليبتليكم**﴾ أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم ﴿**ولقد عفا عنكم**﴾ أي صفح عنكم مع العصيان ، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم ولهذا قال ﴿**والله ذو فضل على المؤمنين**﴾ أي ذو منٍّ ونعمةٍ على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال ﴿**إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد**﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لآخر ﴿**والرسول يدعوكم في أخراكم**﴾ أي ومحمد ﷺ يناديكم من وراءكم يقول (إليَّ عبادَالله ،إليَّ عبادالله ،أنا رسول الله ، من يكرُّ فله الجنة) وأنتم تمعنون في الفرار ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾ أي جازاكم على صنيعكم غماً بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم أمره[1] ﴿**لكيلا تحزنوا على ما فاتكم**﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ﴿**ولا ما أصابكم**﴾ أي من الهزيمة ، والغرض بيان الحكمة من الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على مافاتهم وما أصابهم وذلك من رحمته تعالى بهم ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي يعلم المخلص من غيره ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً**﴾ وهذا امتنانٌ منه تعالى عليهم أي ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة ولتأمنوا على أنفسكم من عدوكم فالخائف لا ينام ، روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاسُ ونحن

---

(١) ذهب الطبري الى أن الباء بمعنى على والمعنى : فجازاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غماً على غم ، كقوله ﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾ أي على جذوع النخل ، وقد رجح هذا القول ابن القيم واعتمده ابن كثير .

ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

في مصافنا يوم أحد ، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه » ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمنة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص ، وبقى أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿ **يغشى طائفةً منكم** ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون ﴿**وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم**﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمةفلا رغبة لهم إلاّ نجاتها وهم المنافقون ، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال ، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمنة فناموا ، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظنٍّ أهل الجاهلية ، قال ابن كثير : وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة[١] ﴿**يقولون هل لنا من الأمر من شيء**﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء ، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿**قل ان الأمر كله لله**﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرّفه كيف شاء ﴿**يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك**﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا**﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج ، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير : أُرسل علينا النوم ذلك اليوم وإنّي لأسمع قول «معتّب بن قشير» والنعاس يغشاني يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا[٢] ﴿**قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدّر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم ، فَقَدَرُ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿**وليبتلي الله ما في صدوركم**﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿**وليمحّص ما في قلوبكم**﴾ أي ولينقّي ما في قلوبكم ويطهّره فعل بكم ذلك ﴿**والله عليم بذات الصدور**﴾ أي عالم بالسرائر مطّلع على الضمائر وما فيها خير أو شر ، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أُحد فقال ﴿**إن الذين تولوا منكم**﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿**يوم التقى الجمعان**﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿**إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** ﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿**ولقد عفا الله**

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٣٠ . (٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٤٢ .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

عنهم﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم **﴿إن الله غفور حليم﴾** أي واسع المغفرة حليم لا يعجل العقوبة لمن عصاه ، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾** أي لا تكونوا كالمنافقين **﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾** أي وقالوا لإخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب **﴿أو كانوا غزى﴾** أو خرجوا غازين في سبيل الله **﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾** أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا ، قال تعالى رداً عليهم **﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾** أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم **﴿والله يحيي ويميت﴾** ردٌّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود **﴿والله بما تعملون بصير﴾** أي مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها **﴿ولئن قتلتم في سبيل الله﴾** أي استشهدتم في الحرب والجهاد **﴿أو متم﴾** أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم **﴿لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون﴾** أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني **﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾** أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم ، فآثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته ، ولله در القائل حيث يقول :

فإن تكن الأبدان للموت أُنشئت فقتل امرىءٍ بالسيف في الله أفضل

البَلاَغَة : ١ - ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم .

٢ - بين لفظ ﴿آمنوا﴾ و﴿كفروا﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿يخفون﴾ و﴿يبدون﴾ وبين ﴿فاتكم﴾ و﴿أصابكم﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ لم يقل وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثوى الظالمين النار أفاده أبو السعود[1] .

٤ - ﴿ذو فضل على المؤمنين﴾ التنكير للتفخيم وقوله ﴿على المؤمنين﴾ دون عليهم فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم .

---

(١) أبو السعود ١/ ٢٨٢ .

٥ ـ ﴿يظنون بالله ظن﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فتوكل . . والمتوكلين﴾ .

٦ ـ ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ فيه استعارة تشبيهاً للمسافر في البر بالسابح الضارب في البحر . لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها واستعانة على قطعها كذا في تلخيص البيان[1].

فَـائِـدَة : من الذين ثبتوا في المعركة بأُحد الأسد المقدام « أنس بن النضر » عم أنس بن مالك . فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمداًﷺ قد قتل قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم بسيفه فلقيه « سعد بن معاذ » فقال : أين يا سعد ؟ والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقُتل ومثَّل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورؤي وبه بضع وثمانون من طعنةٍ وضربةٍ ورميةٍ بسهم[2] .

فَـائِـدَة : روى ابن كثير عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يوم أُحد خلف المسلمين يُجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفتُ يومئذٍ رجوت أن أبرّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ فلما خالف أصحاب رسول اللهﷺ وعصوا ما أُمروا به أُفرد النبيﷺ في تسعة وهو عاشرهم فلما أرهقوه قال : رحم الله رجلاً ردّهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم ، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها ، وحزن عليه رسول اللهﷺ حزناً شديداً ، وصلى عليه يومئذٍ سبعين صلاة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم . . إلى . . عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾
من آية (١٥٩) إلى نهاية آية (١٦٨)

المنَـاسَـبَة : لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أُحد ، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غمّ واضطراب ، وأرشدهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء ، وفي هذه الآيات الكريمة اشادة بالقيادة الحكيمة ، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسولﷺ فقد وسعهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم ، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم باللطف واللين ، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته ، وتوحّدت تحت قيادته ، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة ، وعن المنّة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة .

اللغَـة : ﴿فظاً﴾ الفظُّ : الغليظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيىء الخلق قال الشاعر :

أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاء أخٍ   وكنتُ أخشى عليها من أذى الكلم

﴿غليظ القلب﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر :

يُبكَى علينا ولا نبكي على أحدٍ ؟   لنحن أغلظُ أكباداً من الإبل[3]

(١) تلخيص البيان ص ٢٢ . (٢) انظر قصته في صحيح البخاري . (٣) البحر المحيط ٣/ ٨١ .

﴿انفضوا﴾ تفرقوا وأصل الفضّ الكسر ومنه قولهم : لا يفضض الله فاك ﴿يغل﴾ الغُلول : الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال : غلّ فلان في الغنيمة أي أخذ شيئاً منها في خفية ﴿باء﴾ رجع ﴿سخط﴾ السخط : الغضب الشديد ﴿مأواه﴾ منزله ومثواه ﴿يزكيهم﴾ يطهرهم ﴿منّ﴾ المِنّة : الإنعام والإحسان ﴿فادرءوا﴾ الدرء : الدفع ومنه ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ .

سَبَبُ النّزول : فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعلّ النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿وما كان لنبيّ أن يغل . .﴾[1] الآية .

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾

التفسير : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي فبسبب رحمةٍ من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيناً ليّن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفا ، لتفرقوا عنك ونفروا منك ، ولمّا كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، واطلب لهم من الله المغفرة ،وشاورهم في جميع أمورك ليقتدي بك الناس قال الحسن «ما شاور قومٌ قط إلاّ هُدوا لأرشد أمورهم »[2] وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوّض أمرك إليه ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ أي يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحدٍ أن يغلبكم ﴿وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم ، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أُحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله ، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وما كان لنبيّ أن يغُلَّ﴾ أي ما صحّ ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في الغنيمة ، والنفيُ هنا نفيٌ للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل لأنّ المراد أنه لا يتأتّى ولا يصحّ أن يُتصوّر فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ أي ومن يخُن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحةً له على رءوس الأشهاد ﴿ثم توفّى كل نفسٍ ما كسبت﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافياً غير منقوص

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٢ . (٢) الطبري ٧/ ٣٣٤

رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

﴿**وهم لا يُظلمون**﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص ، فلا يزاد في عقاب العاصي ، ولا ينقص من ثواب المطيع ﴿**أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله**﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه ، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿**ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقراً له ﴿**هم درجات عند الله**﴾ أي متفاوتون في المنازل قال الطبري : هم مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتبع رضوان الله الكرامةُ والثواب الجزيل ، ولمن باء بسخطٍ من الله المهانةُ والعقاب الأليم[1] ﴿**والله بصير بما يعملون**﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجازيهم عليها ، ثمَّ ذكّر تعالى المؤمنين بالمنّة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم**﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولاً عربياً من جنسهم ، عرفوا أمره وخبروا شأنه ، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين ، لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿**يتلو عليهم آياته**﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿**ويزكيهم**﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿**وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر ، فنقلوا من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة**﴾ أي أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثةٌ يوم أحد فقُتل منكم سبعون ﴿**قد أصبتم مثْليها**﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿**قلتم أنّى هذا**﴾ ؟ أي من أين هذا البلاء ، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر ، وموضع التقريع قولهم ﴿**أنى هذا**﴾ ؟ مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ أي قل لهم يا محمد : إن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾ أي وما أصابكم يوم أحد ، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإرادته الأزلية وتقديره الحكيم ، ليتميَّز المؤمنون عن المنافقين ﴿**وليعلم المؤمنين**﴾ أي ليعلم أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿**وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا**﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبدالله بن أبي

---

(١) الطبري ٧/ ٣٦٧ .

لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

ابن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أُحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائةرجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لقاتلنا معكم ، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم ، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿إن ينصركم . . وإن يخذلكم﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية .

٢ ـ ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .

٣ ـ ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل .

٤ ـ ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله﴾ قال أبو حيان: «هذا من الاستعارة البديعة جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به ، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه»[1] .

٥ ـ ﴿بسخطٍ من الله﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف .

٦ ـ ﴿هم درجات﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة ، فالمؤمن درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة[2] .

٧ ـ ﴿للكفر . . وللإيمان﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يبدون . . ويخفون﴾ .

٨ ـ ﴿أصابتكم مصيبة﴾ بينهما جناس الاشتقاق ، وهو من المحسنات البديعية .

---

(١) البحر المحيط ٣/١٠١ . (٢) تلخيص البيان ص ٢٢ .

تنبيه : في هذه الآية ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق ، ومن عجيب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أدناهم إلى التواضع ، فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً وأزكاهم عملاً وأسخاهم كرماً وأفصحهم بياناً وكلها من دواعي العظمة ، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويجيب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل .

فائدة : التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين : أحدهما محبة الله للعبد ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . إلى . . والله بما تعملون خبير﴾
من آية (١٦٩) إلى نهاية آية (١٨٠)

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أُحد ، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية ، وتوضّح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة .

اللغة : ﴿يستبشرون﴾ يفرحون وأصله من البشرة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية : وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿واستغنى الله﴾ ﴿القَرح﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حسبنا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قال الشاعر :

فتملأُ بيتنا أَقْطاً وسَمْناً وحسبُك من غنىً شِبَعٌ وريُّ

﴿حظّاً﴾ الحظ : النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيّد يكون للخير ﴿نملي﴾ الإملاء : التأخير والإمهال قال القرطبي : والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش[2] ﴿يميز﴾ يُميِّز يقال : ماز وميّز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ﴿يجتبي﴾ يختار ﴿سيطوَّقون﴾ من الطّوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : لمّا أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ ، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقةً في ظلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مأْكلهم ومَشْربهم ومَقيلهم قالوا : من يبلّغ إخواننا عنا أنّا أحياءً في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكُلوا عند الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾[3] الآية .

ب - عن جابر بن عبد الله قال : لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر : ما لي أراك منكساً مُهتماً ؟

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٢٢ . (٢) القرطبي ٤/ ٢٨٦ . (٣) أسباب النزول ص ٧٣ والقرطبي ٤/ ٢٦٨ .

قلت يا رسول الله : استُشْهد أبي وترك عيالاً وعليه دين فقال : ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلّمه كفاحاً[1] ـ وما كلّم أحداً قط إلا من وراء حجاب ـ فقال له : يا عبد الله تمنّ أعطك قال يا رب : أسألك أن تردني الى الدنيا فأُقتل فيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون ، قال يا رب : فأبلغ من ورائي فأنزل الله ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾[2].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾

التفسير : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ أي لا تظنَّن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتاً لا يُحُسّون ولا يتنعمون ﴿بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنان الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشياً قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي هم منعّمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي بأنْ لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ أكّد استبشارهم ليذكر ما تعلّق به من النعمة والفضل والمعنى : يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ، فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم ، والفضلُ ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أُحد قال ابن كثير : وهذا كان يوم « حمراء الأسد »[3] وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرّوا راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أنّ بهم قوة وجَلَداً ، ولم يأذن لأحدٍ سوى من حضر أحداً فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ[4] . ﴿للذين أحسنوا

---

(١) كفاحاً : أي مواجهة بدون حجاب ولا رسول . (٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في القرطبي ٤/٢٦٨ .

(٣) حمراء الأسد مكانٌ على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة . (٤) مختصر ابن كثير ١/٣٣٨ .

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

منهم واتقوا أجر عظيم﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجرُ العظيم والثوابُ الجزيل **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾** أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصى فخافوا على أنفسكم فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً **﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** أي قال المؤمنون الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا **﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾** أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب **﴿لم يمسسهم سوء﴾** أي لم ينلهم مكروه أو أذى **﴿واتَّبعوا رضوان الله﴾** أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين **﴿والله ذو فضل عظيم﴾** أي ذو إحسان عظيم على العباد **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه﴾** أي إنما ذلكم القائل **﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾** بقصد تثبيط العزائم هو الشيطان يخوفكم أولياءه وهم الكفار لترهبوهم **﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان «نعيم ابن مسعود الأشجعي» الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين. قال أبو حيان: وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشيء عن وسوسته وإغوائه وإلقائه[1] **﴿ولا يحزّنك الذين يسارعون في الكفر﴾** تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم. ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله **﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾** أي إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم **﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾** أي يريد تعالى بحكمته ومشيئته ألاّ يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة **﴿ولهم عذاب عظيم﴾** أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم **﴿إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾** أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل، لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم **﴿ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم﴾** أي لا يظنَّن الكافرون أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب، وإطالتنا لأعمارهم خير لهم **﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾** أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٤٠.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿**ولهم عذاب مهين**﴾ أي وهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنه سيميّز له المؤمن من المنافق والمعنى لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في غزوة أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير « أي لا بدّ أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفضح بها عدوه ، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر ، كما ميّز بينهم يوم أُحد »[1] . ﴿**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**﴾ قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويله : أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء كما ميّز بينهم يوم أُحد بالبأساء وجهاد عدوه[2] ﴿**ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء**﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾ أي وإن تصدّقوا رسلي وتتقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم ﴿**ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم**﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله . وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله والمعنى لا يحسبنَّ البخيلُ أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه ، بل هو مضرّة عليه في دينه ودنياه ﴿**بل هو شرٌّ لهم**﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخلُ شرٌّ لهم ﴿**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في صحيح البخاري (**من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناًعظيماً - له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا** ﷺ ﴿**ولا يحسبنَّ الذين يبخلون**﴾ الآية ﴿**ولله ميراث السموات والأرض**﴾) أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي مطلع على أعمالكم .

البَلاغَة : قال في البحر : تضمنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبديع : **الإطناب في** ﴿يستبشرون﴾ وفي ﴿لن يضروا﴾ وفي اسم الجلالة في مواضع . والطباق في ﴿أمواتاً بل أحياء﴾ وفي

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٤٠ . (٢) الطبري ٧/ ٤٢٧ .

﴿الكفر بالإيمان﴾ والاستعارة في ﴿اشتروا الكفر﴾ وفي ﴿يسارعون في الكفر﴾ وفي ﴿الخبيث والطيب﴾ إذ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع[1] .

فــائــدة : قوله تعالى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار قال السيوطي في الإكليل : يستحب قول هذه الكلمة عند الغمّ والأمور العظيمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير . . إلى . . والله على كل شيء قدير﴾ من آية (١٨١) إلى نهاية آية (١٨٩)

المنــاسبة : بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أُحد وما فيها من أحداث جسيمة ، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام والغدر بالمسلمين وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله ، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبلة ، والكيد والدسّ ، ليحذّر المؤمنين من خطرهم كما حذّرهم من المنافقين ، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية ، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر ، ثم نقضهم للعهود ، وقتلهم للأنبياء ، وخيانتهم للأمانة التي حمّلهم الله إيّاها ، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون .

اللغــة : ﴿عهد إلينا﴾ أوصانا ﴿بقربان﴾ القربان : ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى ﴿البينات﴾ الآيات الواضحات والمراد به هنا المعجزات ﴿الزُّبُر﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزَّبـر وهو الكتابة ، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرَّكوب بمعنى المركوب قال الزجاج : الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿زحزح﴾ الزحزحة : التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فاز﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الغرور﴾ مصدر غرَّه يغرّه غـروراً أي خدعه ﴿متاع﴾ المتاع : ما يُتمتع به ويُنتفع ثم يزول ﴿لتبلونَّ﴾ لتمتحننَّ من بلاه أي امتحنه ﴿عزم الأمور﴾ أصل العزم ثباتُ الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بمفازة﴾ بمنجاة من قولهم فاز فلان إذا نجا .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصّديق ذات يوم بيت مدراس اليهود ، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص بن عازوراء» وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك اتق الله وأسلِمْ فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسولٌ من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنّا عنه لأغنياء ، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر وضرب وجه «فنحاص» ضربةً شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو

(١) البحر المحيط ٣/ ١٢٩ .

الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : انظر إلى ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر ؟ فقال يا رسول الله : إنَّ عدو الله قال قولاً عظيماً ، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فغضبتُ لله وضربتُ وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله رداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[١] الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ ـ منهم كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ،وفنحاص بن عازوراء ـ وغيرهم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً ، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألاّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا بهذا صدّقناك فنزلت هذه الآية ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾[٢] الآية .

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ

التفسير : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير ، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوا : إن الله فقير يقترض منا كما قالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ قال القرطبي : وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا ، وغرضُهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا[٣] ﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق ، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة : ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وأن الله ليس بظلاّم للعبيد﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق ، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم ، وعدلِ اللّه تعالى فيكم ، قال الزمخشري : ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن[٤] ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ أي هم الذين قالوا إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿ألاّ نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار﴾ أي أمرنا بأن لا نصدّق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدّم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيّنات وبالذي قلتم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وإظهاراً لكذبهم : قد

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٦ ومختصر ابن كثير ١/ ٣٤٢ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/ ١٢١ .
(٣) القرطبي ٤/ ٢٩٤ (٤) الكشاف ١/ ٣٤٤ .

وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتم ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله والتصديق برسله ؟ ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ ﴿فإن كذبوك فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذَّبت أسلافهم من قبلُ رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة ﴿جاءوا بالبينات﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿والزُّبُر والكتاب المنير﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحِكَم والمواعظ ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل ﴿كل نفسٍ ذائقة الموت﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفسٍ ميّتة لا محالة كقوله ﴿كلٌ من عليها فان﴾ ﴿وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة ﴿فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ أي فمن نُحي عن النار وأُبْعِد عنها ، وأُدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية والنعيم المخلّد ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور قال ابن كثير : الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة[1] ﴿لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم﴾ أي والله لتمتحننَّ وتختبرنَّ في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ أي وليناكم من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير ، وهذا إخبارٌ منه جلّ وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجّار ، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن الجنة حفَّت بالمكاره ولهذا قال ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾ أي وإن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها لأنها ممّا أمر الله بها ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لتبيننَّه للناس ولا تكتمونه﴾ أي لتظهرنَّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٤٣ .

﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

تخفونها ، قال ابن عباس : هي لليهود أُخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه[1] ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حُطام الدنيا ﴿فبئس ما يشترون﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي فلا تظنَّنهم بمنجاة من عذاب الله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه[2] ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي له سبحانه جميع ما في السموات والأرض فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً ؟ والآية ردٌّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي :

١ ـ ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ أكد اليهود الجملة بـ﴿إنَّ الله فقيرٌ﴾على سبيل المبالغة ، فحيث نسبوا الى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج الى تأكيد كأنَّ الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان .

٢ ـ ﴿سنكتب ما قالوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً .

٣ ـ ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تُزوال بهن .

٤ ـ ﴿تأكله النار﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذائقة الموت﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسّة اللسان .

٥ ـ ﴿متاع الغرور﴾ قال الزمخشري : « شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على المستام ويُغر حتى يشتريه والشيطان هو المدلِّس الغرور »[3] فهو من باب الاستعارة .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٢٦ (٢) الكشاف ١/ ٣٤٥ .

٦ ـ ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء شبّه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان وباشتراء ثمن قليل ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله .

٧ ـ وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فقير وأغنياء﴾ والمقابلة ﴿زحزح عن النار وأدخل الجنة﴾ وفي ﴿لتبيننّه . . ولا تكتمونه﴾ والجناس المغاير في ﴿قول الذين قالوا﴾ وفي ﴿كذبوك فقد كذب﴾ .

فَـائِـدَة : صيغة فعّال في الآية ﴿وما ربك بظلاّم﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطّار ونجّار وتمّار كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك .

ومع فاعل وفعّال فُعل في نسبٍ أغنى من الياء قُبل

تـنبيـهٌ : إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور ، لما تمنّيه لذاتها وشهواتها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه ، ولهذا قال بعض السلف : الدنيا متاعٌ متروك يوشك أن يضمحلّ ويزول ، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان .

* * *

قال الله تعالى :﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات . . إلى آخر السورة﴾
من آية (١٩٠) إلى نهاية آية (٢٠٠)

المنَاسَبَة : بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد ، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك ، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق ، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال ، فلفتت الأنظار إلى التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور « الكون الفسيح » بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور « القرآن العظيم » وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ .

اللغَـة : ﴿الألباب﴾ العقول ﴿باطلاً﴾ عبثاً بدون حكمة ﴿سبحانك﴾ تنزيهٌ لله عن السوء ﴿أخزيته﴾ أذللته وأهنته ﴿كفّرْ عنا﴾ استر وامح ﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بارّ وهم المستمسكون بالشريعة ﴿فاستجاب﴾ بمعنى أجاب ﴿نُزُلاً﴾ النُّزُل : ما يهيأ للنزيل وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿رابطوا﴾ المرابطة : ترصد العدو في الثغور .

سبب النزول : عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى﴾[١] الآية .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي﴾

التفسير : ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لآياتٍ لأولي الألباب﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته ، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم ، ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ أي يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يتدبرون في ملكوت السموات والأرض ، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ أي ننزهك يا ألله عن العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي من أدخلته النار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله ، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وكفّر عنا سيئاتنا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي ألحقنا بالصالحين قال ابن عباس : الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم﴾ فلا تكرار إذاً ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن

(١) الطبري ٧/ ٤٨٨ وأسباب النزول ص ٨٠ . (١) البحر المحيط ٣/ ١٤٢ .

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ

عباس ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿إنك لا تخلفُ الميعاد﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أُنثى﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أُبطل عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل أو أُنثى قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ، ربنا ، حتى استجاب لهم[1] ﴿بعضكم من بعض﴾ أي الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر[2] ﴿فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم﴾ أي هجروا أوطانهم فارين بدينهم ، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم﴾ أي الموصوفون بما تقدم لأمحونَّ ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ أي ولأدخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم نبه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذه الدار من النعمة والغبطة والسرور ، وبيّن أنه نعيم زائل فقال ﴿لا يغرنك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد﴾ أي لا يخدعنك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول هذا النعيم ، ومصيرهم في الآخرة إلى النار ، وبئس الفراش والقرار نار جهنم . ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً ﴿نزلاً من عند الله﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار ، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل ، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن

(١) القرطبي ٣١٨/٤ . (٢) قال الطبري : بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين ، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر .

﴿أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

سلام وأصحابه ، والنجاشي وأتباعه ﴿**خاشعين لله**﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ أي لا يحرّفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرضٍ من الدنيا خسيس كما فعل الأحبار والرهبان ﴿**أولئك لهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفاً كما قال ﴿**أولئك يُؤتون أجرهم مرتين**﴾ ﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ أي سريعٌ حسابُه لنفوذ علمه بجميع المعلومات ، يعلم ما لكل واحدٍ من الثواب والعقاب ، قال ابن عباس والحسن :نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه : قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي ، فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلي على علج من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾[1] الآية . ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا**﴾ أي اصبروا على مشاقّ الطاعاتِ وما يصيبكم من الشدائد ﴿**وصابروا**﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿**ورابطوا**﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين .

البَلاَغَة : تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإطناب في قوله ﴿ربنا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع .

٢ ـ الطباق في قوله ﴿السموات والأرض﴾ و﴿الليل والنهار﴾ و﴿قياماً وقعوداً﴾ و﴿ذكرٍ أو أُنثى﴾ .

٣ ـ الإيجاز بالحذف ﴿ ما وعدتنا على رسلك﴾ أي على ألسنة رسلك وكذلك في قوله ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا﴾ أي قائلين ربنا .

٤ ـ الجناس المغاير في قوله ﴿آمنوا . . فآمنا﴾ وفي ﴿عمَل عاملٍ﴾ وفي ﴿منادٍ يُنادي﴾ .

٥ ـ ﴿ لآيات لأولي الألباب﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إنَّ لزيادة التأكيد .

٦ ـ الاستعارة في قوله ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا﴾ استعير التقلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم .

الفَوَائِد : الأولى : إنما خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق ففي الحديث الشريف (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره) وذلك لعدم الوصول إلى

(١) البحر المحيط ٣/ ١٤٨ والقرطبي ٤/ ٣٢٢ .

كنه ذاته وصفاته قال بعض العلماء : المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء .

الثانية : تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿ربنـا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطـاف وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح .

الثالثة : سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أعجب ما رأتـه من رسـول اللـه ﷺ فبـكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال (ذريني أتعبـد لربـي عز وجل) فقلت : والله إني لأحب قربك وأحب هواك ،فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صبَّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤ ذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟فقال (ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنـزل اللـه عليَّ في هذه الليلـة ﴿إن في خـلـق السمـوات والأرض . . ﴾ الآيات ثم قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران »

* * *

(١) أخرجه ابن مردويه وانظر ابن كثير ١/ ٣٤٨ .



بين يدي السورة

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة ، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية ، التي تنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وهي تُعْنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والدولة ، والمجتمع ، ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت « سورة النساء » ! !

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام ـ وبخاصة اليتيمات ـ في حجور الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج ، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة .

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها ، وحفظت كيانها ، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر ، والميراث ، وإحسان العشرة .

* كما تعرضت بالتفصيل إلى « أحكام المواريث » على الوجه الدقيق العادل ، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة ، وتحدثت عن المحرمات من النساء « بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة » .

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت انها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية ، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً ، وإنما هو عطاء يوثق المحبة ، ويديم العشرة ، ويربط القلوب .

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية ، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين ، وبيّنت معنى « قوامة الرجل » وانها ليست قوامة استعباد وتسخير ، وإنما هي قوامة نصحٍ وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته .

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى « دائرة المجتمع » فأمرت بالإحسان في كل شيء ، وبيّنت أن

أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان .

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها ، فأمرت بأخذ العدّة لمكافحة الأعداء .

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية .

* واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين ، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم .

* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام .

* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى بن مريم حيث غالوا فيه حتى عبدوه ثم صلبوه[1] مع اعتقادهم بألوهيته ، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيّين ، وقد دعتهم الآيات الى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية « عقيدة التوحيد » وصدق الله حيث يقول : ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد﴾ .

التسمية : سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أُطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . . إلى . . إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ من آية (١) الى نهاية آية (١٠) .

* * *

اللغة : ﴿بثَّ﴾ نشر وفرّق ومنه ﴿وزرابي مبثوثة﴾ ﴿الأرحام﴾ جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في بطن أمه ثم أطلق على القرابة ﴿رقيباً﴾ الرقيب : الحفيظ المطّلع على الأعمال ﴿حُوْباً﴾ الحُوْب : الذنب والإثم ﴿تعولوا﴾ تميلوا وتجوروا يقال : عال الميزان إذا مال ، وعال الحاكم إذا جار ﴿صدقاتهن﴾ جمع صَدُقَة وهو المهر ﴿نِحْلة﴾ هبة وعطية ﴿السفهاء﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا المبذّرون للأموال ﴿آنستم﴾ أبصرتم من آنس الشيءَ أبصره ﴿بداراً﴾ أي مبادرة بمعنى مسارعة أي يسارع في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيم فيتسلمها منه ﴿سديداً﴾ من السداد بمعنى الاستقامة .

---

(١) أي زعموا أنه صلب وقد أحسن من قال : إذا صلب الإلـه بفعل عبدٍ يهودي فما هذا الإلـه ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

سبب النزول : أ ـ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى﴾ فقالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تَشركُه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن ذلك إلاّ أن يُقْسطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى سنتهن في الصَّداق ، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ويستفتونك في النساء﴾[1] الآية

ب ـ عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له « مرثد بن زيد » وليَ مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . .﴾[2] الآية .

التفسير : افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، منبهاً لهم على قدرته ووحدانيته فقال ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة**﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصلٍ واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿**وخلق منها زوجها**﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿**وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً**﴾ أي نشر وفرّق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً ﴿**واتقوا الله الذي تَسَاءلون به والأرحام**﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول : أسألك بالله ، وأنشدك بالله ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿**إن الله كان عليكم رقيباً**﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم ، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين : في أول الآية ، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده ، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية ، فالناس جميعاً من أصل واحد ، وهم إخوة في الإنسانية والنسب ، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان ، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس ، وتقضي على الكهل والوليد ، ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿**ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب**﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿**ولا تأكلوا أموالهم إلى**

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) القرطبي ٥/٥٣ وأسباب النزول ص ٨٣ .

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ

أموالكم﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً **﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾** أي ذنباً عظيماً ، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف ، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله ، ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾** أي إذا كانت تحت حَجْر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه[1] **﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾** أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهنَّ إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾** أي إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات **﴿ذلك أدنى ألاَّ تعولوا﴾** أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا **﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾** أي أعطوا النساء مهورهنّ عطيةً عن طيب نفس **﴿فإن طبنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً﴾** أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيءٍ من الصَّداق **﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾** أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالاً طيباً **﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾** أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها قال ابن عباس : السفهاء هم الصبيان والنساء وقال الطبري : لا تؤتِ سفيهاً ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره ، صبياً كان أو رجلاً ، ذكراً كان أو أنثى[2] **﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾** أي أطعموهم منها واكسوهم **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** أي قولاً ليناً كقولكم إذا رَشَدْتم سلمنا إليكم أموالكم **﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾** أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سنَّ النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح **﴿فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾** أي إن أبصرتم منهم صلاحاً في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير **﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾** أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذّروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل ان يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا **﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾** أي من كان منكم غنياً أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته **﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾** أي

---

(١) اختار الطبري أن المعنى إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذانكحتموهن. وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير . (٢) الطبري ٧/ ٥٦٥ .

بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

ومن كان فقيراً فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله **﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾** أي فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشهدوا على ذلك لئلا يجحدوا تسلمها **﴿وكفى بالله حسيباً﴾** أي كفى بالله محاسباً ورقيبا، ثم بيّن تعالى أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء فقال **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾** أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضاً الجميع فيه سواء يستوون في أصل الوارثة وإن تفاوتوا في قدرها، وسببها أن بعض العرب كانوا لا يورّثون النساء والأطفال وكانوا يقولون: إنما يرث من يحارب ويذبُّ عن الحوزة فأبطل الله حكم الجاهلية **﴿مما قلَّ منه أو كثر﴾** أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة **﴿نصيباً مفروضاً﴾** أي نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين **﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾** أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمساكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطييباً لخاطرهم **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** أي قولاً جميلاً بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾** نزلت في الأوصياء أي تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم وعامل اليتامى الذين في حَجْرك بمثل ما تريد أن يُعامل به أبناؤك بعد فقدك **﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾** أي فليتقوا الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾** أي يأكلونها بدون حق **﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾** أي ما يأكلون في الحقيقة إلا ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة **﴿وسيصلون سعيراً﴾** أي سيدخلون ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير.

البلاغة: تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي:

١ ـ الطباق في **﴿غنياً وفقيراً﴾** وفي **﴿قلَّ أو كثر﴾** وفي **﴿رجالاً ونساءً﴾** وفي **﴿الخبيث بالطيب﴾**.

٢ ـ والجناس المغاير في **﴿دفعتم فادفعوا﴾** وفي **﴿قولوا قولاً﴾**.

٣ ـ والإطناب في ﴿فادفعوا إليهم أموالهم . . فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾ وفي ﴿للرجال نصيب مما ترك الولدان . . وللنساء نصيب مما ترك الولدان والأقربون﴾ .

٤ ـ والمجاز المرسل في ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي الذين كانوا يتامى فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يئول إليه كقوله ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ أي عنباً يئول إلى الخمر .

٥ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿ومن كان غنياً فليستعفف . . ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ .

٦ ـ والإيجاز في مواضع مثل ﴿رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي ونساء كثيرات . . . الخ .

الفوائد : الأولى : في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفسٍ واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والمواريث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الاحكام الشرعية .

الثانية : الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يا أيها الناس﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أُعقب بدلائل الوحدانية والربوبية مثل ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ و﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ وإذا كان الخطاب للمؤمنين أُعقب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب البحر[1] .

الثالثة : ذكْرُ البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك : أبصرتُ بعيني وسمعتُ بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ .

الرابعة : أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى للتنبيه إلى « التكافل بين الأمة » والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفيه للمال فيه مضرّة للمجتمع كله .

« كلمة حول تعدد الزوجات »

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام ، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشذّبه وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع ان يحل « مشكلة إجتماعية » هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلاً . . إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كفتاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال ؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية و« نعمة الأمومة » ونتركها تسلك طريق الفاحشة

(١) البحر المحيط ١٥٣/٣ .

والرذيلة ، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الاسرة وسلامة المجتمع ؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في المانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرّع ؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامي الرائع ، بينما وقفت المسيحية حائرةً مكتوفة الأيدي لا تُبدي ولا تُعيد . . إن الرجل الاوروبي لا يبيح له دينه التعدد ، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة ، يرى الوالد منهم فتاته مع عشيقها فيُسرّ ويغتبط بل ويمهّد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه ، ووافقت على قبول مبدأ « تعدد الزوجات » ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد ، ويستطيع الرجل ان يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق ، والعلاقة بينهما علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية ، فأعجب من منع « تعدد الزوجات » بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية .

ربّ إن الهُدى هُداك وآيا   تك حق تهدي بها من تشاء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يوصيكم الله في أولادكم . . إلى . . يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (١٤) .

المنَاسَبَة : لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال ، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات ، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات ، ثم نصيب الأزواج والزوجات ، ثم نصيب الإخوة والأخوات .

اللغَة : ﴿يوصيكم﴾ الوصية : العهد بالشيء والأمر به ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فريضة﴾ أي حقاً فرضه الله وأوجبه ﴿كلالة﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكلّ بمعنى الضعف يقال : كلَّ الرجل إذا ضعف وذهبت قوته ﴿حدود الله﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها .

سَبَبُ النّزول : روي أن امرأة « سعد بن الربيع » جاءت رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما سعد معك بأُحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا تُنكحان إلا بمال فقال ﷺ : يقضي الله في ذلك فنزلت آية المواريث ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط إبنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك[1] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي .

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾

التفسير : ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿**فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين**﴾ أي إن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿**فلهن ثلثا ما ترك**﴾ أي فللبنتين فأكثر ثلثا التركة ﴿**وإن كانت واحدة فلها النصف**﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة . . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿**ولأبويه لكل واحد منهما السدس**﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿**مما ترك**﴾ أي من تركة الميت ﴿**إن كان له ولد**﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿**فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه**﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معهما أحد الزوجين ﴿**فلأمه الثلث**﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿**فإن كان له إخوة فلأمه السدس**﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت « اثنان فأكثر » فالأم ترث حينئذٍ السدس فقط والباقي للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿**من بعد وصية يُوصي بها أو دين**﴾ أي إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله**﴾ أي إنه تعالى تولّى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة ، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿**إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ أي إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض . ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿**ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد**﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿**فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن**﴾ أي من ميراثهن ، وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع ﴿**من بعد وصية يوصين بها أو دين**﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿**ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد**﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن

مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾

لكم ولد منهن أو من غيرهن ﴿فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾ أي فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿من بعد وصيةٍ توصون بها أو دين﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنها ما لا يخفي . ﴿وإن كان رجلٌ يُورثُ كلالةً﴾ أي وإن كان الميت يورث كلالة أي لا والد له ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأةٌ تورث كلالة ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي وللمورّث أخ أو أخت من أم ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾ أي فللأخ من الأم السدس وللأخت للأم السدس أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، قال في البحر : وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مضار﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام (الثلث والثلث كثير)﴿وصيةً من الله﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿والله عليم حليم﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تلك حدود الله﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بيّن ، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ أي الفلاح العظيم ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول ويتجاوز ما حدّه تعالى له من الطاعات ﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرُج منها أبداً﴿ وله عذاب مهين﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي :

١ ـ الطباق في لفظ ﴿الذكر والانثى﴾ وفي ﴿ومن يطع ومن يعص﴾ وفي ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾ .

٢ ـ الإطناب في ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ و﴿من بعد وصيةٍ يوصين بها أو دين﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر .

٣ ـ جناس الاشتقاق في ﴿وصية يوصى﴾ . ٤ ـ المبالغة في ﴿عليم ، حليم﴾ .

فائدة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤ يده ما ورد « للّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها » .

تنبيه : وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤ نة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فنفقاته أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم . . إلى قوله تعالى . . وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢١) .

المناسبة : لما بيّن سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث ، بيّن حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام ، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء ، وأكل مهورهن ، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة .

اللغة : ﴿واللاتي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿واللّذان﴾ تثنية الذي ﴿التوبة﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح ﴿كَرْهاً﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حملته أمه كُرْها﴾ ﴿تعضلوهن﴾ تمنعوهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بهتاناً﴾ ظلماً وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أفضى﴾ وصل إليها ، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ عهداً شديداً مؤ كداً وهو عقد النكاح .

وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾

سبب النزول : روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوباً ، فإن شاء تزوجها بالصَّداق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً . . ﴾[2] .

التفسير : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي اللواتي يزنين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾ أي فإن ثبتت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حتى يتوفاهنَّ الموت﴾ أي احبسوهنَّ فيها إلى الموت ﴿أو يجعل الله لهنَّ سبيلاً﴾ أي يجعل الله لهنَّ مخلصاً بما يشرعه من الأحكام قال

---

(١) انظر الحكمة التشريعية في كتابنا المواريث في الشريعة الإسلامية ص ١٨ . (٢) زاد المسير ٢/ ٣٩ .

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ﴾

ابن كثير : كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيِّنة العادلة حُبست في بيت فلا تمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم[١] **﴿واللذان يأتيانها منكم﴾** أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب **﴿فآذوهما﴾** أي بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال **﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾** أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفّوا عن الإيذاء لهما **﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾** أي مبالغاً في قبول التوبة واسع الرحمة . قال الفخر الرازي : « خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية ، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة »[٢] **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾** أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مقدِّراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب **﴿ثم يتوبون من قريب﴾** أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت **﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾** أي يتقبل الله توبتهم **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** أي علياً بخلقه حكيماً في شرعه **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن﴾** أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة[٣] وفي الحديث (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) **﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾** أي يموتون على الكفر فلا يُقبل إيمانهم عند الاحتضار **﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾** أي هيأنا وأعددنا لهم عذاباً مؤلماً **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرهاً﴾** أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم ، وإن شاءوا زوجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج[٤] **﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾** أي ولا يحل

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٦٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٣٥ . (٣) قال الشهيد سيد قطب في الظلال : « فهذه توبة المضطر لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا في الاتجاه » . (٤) القرطبي ٥/ ٩٤ .

﴿بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصَّداق ﴿**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ أي إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنا وقال ابن عباس : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ﴿**وعاشروهنَّ بالمعروف**﴾ أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿**فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ أي فإن كرهتم صحبتهن فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فعسى أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تَقَرُّ به أعينكم ، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث الصحيح (لا يَفْرَكْ «أي لا يبغض» مؤمنٌ مؤمنةإن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر) ثم حذّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿**وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوج**﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ أي والحال انكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً ﴿**فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر ﴿**أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ استفهام إنكاري أي أتأخذونه باطلاً وظلماً ؟ ﴿**وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية ؟ ﴿**وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً هو « عقد النكاح » قال مجاهد : الميثاق الغليظ عقدة النكاح وفي الحديث (اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[1] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي :

١ ـ المجاز العقلي في قوله ﴿يتوفاهنَّ الموتُ﴾ والمراد يتوفاهنَّ الله أو ملائكته .

٢ ـ الاستعارة في ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي .

٣ ـ الجناس المغاير في ﴿فإن تابا . . تواباً﴾ وفي ﴿كرهتموهن . . أن تكرهوا﴾ .

٤ ـ المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾لتعظيم الأمر والمبالغة فيه .

فَائِدَة : كنّى الله تعالى عن الجماع بلفظ الإفضاء ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع قال ابن عباس : « الإفضاء في هذه الآية الجماعُ ولكنَّ الله كريم يكني »[2] .

(١) أخرجه مسلم . (٢) القرطبي ١٠٢/٥ .

تنبيه : خطب عمر رضي الله عنه فقال : أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدقَ امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ؟ يقول تعالى ﴿وآتيتم إحداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ فقال رضي الله عنه : أصابت امرأة وأخطأ عمر »[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . . إلى . . وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٣١) .

المناسبة : لما أوصى تعالى بحسن معاشرة الأزواج ، وحذّر من إيذائهن أو أكل مهورهن ، عقّبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع .

اللغة : ﴿سلف﴾ مضى ﴿مقتاً﴾ المقت : البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه « نكاح المقت » ﴿ربائبكم﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تتربّى في حجر الزوج ﴿حجوركم﴾ جمع حَجْر أي في تربيتكم يقال : فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة : في حجوركم أي في بيوتكم ﴿حلائل﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿محصنين﴾ متعففين عن الزنى ﴿مسافحين﴾ السفاح : الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصبّ وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طَوْلاً﴾ سعةً وغنى ﴿أخدان﴾ جمع خِدْن وهو الصديق للمرأة يزني بها سراً ﴿العَنَت﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سنن﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نصليه﴾ ندخله .

سبب النزول : أ ـ لما توفي « أبو قيس بن الأسلت » وكان من صالحي الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت : إني أعدّك ولداً ! ! ولكني آتي رسول الله ﷺ استأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . .﴾[2] الآية .

ب ـ عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا سبايا يوم اوطاس لهن أزواج ، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ فنزلت ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم . .﴾ الآية قال : فاستحللناهن[3] .

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

التفسير : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً﴾ أي فإن نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة ، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة ، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ؟ ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بئس ذلك النكاح القبيح الخبيث

(١) الكشاف ١/ ٣٧٩ . (٢) القرطبي ٥/ ١٠٤ . (٣) أسباب النزول ص ٨٥ .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ﴾

طريقاً،ثم بيّن تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿**حُرّمت عليكم أمهاتكم**﴾ أي حُرّم عليكم نكاح الأمهات وشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿**وبناتكم**﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلن ﴿**وأخواتكم**﴾ أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿**وعماتكم**﴾ أي أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم ﴿**وبنات الأخ وبنات الأخت**﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن ، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهنَّ كما تقدم « الأمهات ، البنات ، الأخوات ، العمات ، الخالات ، بنات الأخ ، بنات الأخت » ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿**وأمهاتكم اللآتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة**﴾ نزّل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمّى المرضعة أماً للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك ، وكذلك أختك من الرضاع ، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى «الأمهات والأخوات»وقد وضحت السنةالنبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كماهو الحال في النسب لقوله عليه السلام (يحرم من الرضاع مايحرم من النسب)[1] ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿**وأمهات نسائكم**﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم ﴿**وربائبكم اللاتي في حجوركم**﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن ، وذكرُ الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع ﴿**من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم**﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم**﴾ أي وحُرِم عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم بخلاف من تبنيتموهم فلكم نكاح حلائلهم ﴿**وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف**﴾ أي وحُرّم عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه ﴿**إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ أي غفوراً لما سلف رحيماً بالعباد ﴿**والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم**﴾ أي وحرّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي فيحل لكم وطؤهنَّ بعد الاستبراء ولو كان لهنَّ أزواج في دار الحرب لأن بالسبي تنقطع عصمة الكافر ﴿**ولا تمسكوا**

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ

بعِصَم الكوافر﴾ ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي هذا فرض الله عليكم ﴿وأُحلّ لكم ما وراء ذلكم﴾ أي أحل لكم نكاح ما سواهنّ ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهنّ مهورهن فريضةً فرضها الله عليكم بقوله ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ ثم قال تعالى ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ أي لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن كقوله ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ قال ابن كثير: أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بمصالح العباد حكيماً فيما شرع لهم من الأحكام ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر المؤمنات ﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الايمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بعضكم من بعض﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفسٍ واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن فرب أمة خير من حرة ، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرةُ بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ أي تزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي ادفعوا لهن مهورهن عن طيب نفسٍ ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات ﴿محصنات غير مسافحات﴾ أي عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿ولا متخذات أخدان﴾ أي ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن قال ابن عباس: الخِدنُ هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن[1] ﴿فإذا أُحصنّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي فإذا أُحصنَّ بالزواج ثم زنين فعليهن نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى ﴿ذلك لمن خشي العَنَت منكم﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٢٢ .

وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

أفضل لئلا يصير الولد رقيقاً وفي الحديث (من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فلينكح الحرائر)[1] ﴿**والله غفور رحيم**﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿**يريد الله ليبيّن لكم**﴾ أي يريد الله أن يفصّل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿**ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿**ويتوب عليكم**﴾ أي يتقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ كرّره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام ، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً**﴾ أي ويريد الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿**يريد الله أن يخفّف عنكم**﴾ أي يريد تعالى بما يسَّر أن يسهّل عليكم أحكام الشرع ﴿**وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً**﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتباع الشهوات ، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير : الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها[2] ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر ، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿**ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً**﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظالماً لا سهواً ولا خطأً ﴿**فسوف نصليه ناراً**﴾ أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها ﴿**وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّرْ عنكم سيئاتكم**﴾ أي

(١) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعاً . (٢) مختصر ابن كثير ٣٧٨/١ .

إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عز وجل عنها نمح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿ونُدْخلكم مُدْخلاً كريماً﴾ أي نُدخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم ، التي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز المرسل في ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهات فهو على حذف مضاف .

٢ ـ الطباق في ﴿حرّمت . . وأحلّ﴾ وفي ﴿محصنين . . ومسافحين﴾ وفي ﴿كبائر . . وسيئاتكم﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب .

٣ ـ الكناية في ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب .

٤ ـ الاستعارة في ﴿وآتوهن أجورهن﴾ استعار لفظ الأجور للمهور ، لان المهر يشبه الاجر في الصورة .

٥ ـ الجناس المغاير في ﴿تنكحوا ما نكح﴾ وفي ﴿أرضعنكم . . من الرضاعة﴾ وفي ﴿محصنات . . فإذا أحصنّ﴾ والإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

الفَوَائِد : الأولى : استنبط العلماء من آية المحرمات القاعدة الآتية وهي « العقد على البنات يحرّم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرّم البنات » .

الثانية : حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لانكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك[1] .

الثالثة : قال ابن عباس : الكبيرة كل ذنبٍ ختمه الله بنار ، أو غضبٍ ، أو لعنةٍ ، أو عذاب .

الرابعة : روى سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : الكبائر سبع ؟ قال : هي إلى السبعمأة أقرب منها إلى السبع ، ولكن لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار ، ذكره القرطبي .

* * *

قال تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض . . إلى . . إن الله كان عفواً غفوراً﴾ من الآية (٣٢) إلى نهاية الآية (٤٣) .

---

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا روائع البيان ١ / ٤٥٧ ففيه بحث هام .

المناسبة : لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث ، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خصَّ الله به كلاً من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء ، ثم ذكر تعالى حقوق كلٍ من الزوجين على الآخر ، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة النشوز والعصيان .

اللغة : ﴿موالي﴾ المَوْلى : الذي يتولى غيره يقال للعبد مَوْلى وللسيد مَوْلى لأن كلاً منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قوامون﴾ قوّام : مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية ﴿قانتات﴾ مطيعات وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نشوزهن﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع ومنه تلٌّ ناشز ويقال : نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿المضاجع﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شقاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿الجُنُب﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره ، وأصل الجنابة : البعد ﴿مختالاً﴾ المختال : ذو الخيلاء والكبر ﴿مثقال﴾ وزن ﴿الغائط﴾ الحدث وأصله المطمئن من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكني عن الحدث بالغائط .

سبب النزول : أ ـ عن مجاهد قال : قالت « أم سلمة » يا رسول الله : يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض﴾ [١] الآية .

ب ـ روي أن سعد بن الربيع ـ وكان نقيباً من نقباء الأنصار ـ نشزت عليه امرأته « حبيبة بنت زيد » فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال : أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتصَّ منه فنزلت ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ فقال ﷺ : (أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير)[٢] .

وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ

التفسير : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خصَّ الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أوالدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري : نهُوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ أي لكلٍ من الفريقين في الميراث نصيبٌ معين المقدار قال الطبري : كلٌ له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر[٣] ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أي وسلوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهاب ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿ولكلٍ جعلنا موالي

(١) أسباب النزول ص ٨٥ (٢) الكشاف ١/ ٢٩٠ . (٣) الطبري ٨/ ٢٦٧ .

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي ولكل إنسانٍ جعلنا عصبةً يرثون ماله ممّا تركه الوالدان والأقارب من الميراث **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن : كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسبٌ فيرث أحدُهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعض﴾ وقال ابن عباس : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ولكلٍ جعلنا موالي﴾ نسخت[١] **﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾** أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه . . ثم بيّن تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسئولية والتوجيه فقال **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** أي قائمون عليهن بالأمر والنهي ، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾** أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب قال أبو السعود : « والتفضيلُ للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك »[٢] **﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾** هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان : قسم صالحات مطيعات ، وقسم عاصيات متمردات ، فالنساء الصالحات مطيعات للّه ولأزواجهن ، قائمات بما عليهن من حقوق ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره وفي الحديث(إن من شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة ، الرجلُ يُفْضي إلى امرأته وتُفْضي إليه ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه) **﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾** هذا القسم الثاني وهنَّ النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعالين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح **﴿فعظوهنَّ واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾** أي فخوفوهنَّ الله بطريق النصح والإرشاد ، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهنَّ في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس : الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره[٣] ، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرّح **﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾** أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن **﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾** أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٤ . (٢) ارشاد العقل السليم ١/ ٣٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٦ .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) * وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا﴾

وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين ! ! **﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾** أي وإن خشيتم أيها الحكام مخالفةً وعداوةً بين الزوجين فوجهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة **﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾** أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة **﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾** أي عليماً بأحوال العباد حكيماً في تشريعه لهم **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾** أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره ، واستوصوا بالوالدين براً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً **﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾** أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة **﴿والجار ذي القربى﴾** أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة **﴿والجار الجنب﴾** أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه **﴿والصاحب بالجنب﴾** قال ابن عباس : هو الرفيق في السفر ، وقال الزمخشري : « هو الذي صحبك إما رفيقاً في سفر ، أو جاراً ملاصقاً ، أو شريكاً في تعلم علم ، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك ، من له أدنى صحبةٍ التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل : هي المرأة »[1] **﴿وابن السبيل﴾** أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله **﴿وما ملكت أيمانكم﴾** أي المماليك من العبيد والإماء **﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾** أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم ، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق ، ومن تدبرها حق التدبر أغنتْه عن كثيرٍ من مواعظ البلغاء ، ونصائح الحكماء . ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾** أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق ، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات ، وهي مع ذلك عامة **﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** أي يخفون ما عندهم من المال والغنى ، ويخفون نعته عليه السلام الموجود في التوراة[2] **﴿وأعتدنا**

(١) الكشاف ١/ ٣٩٣ وهذا الرأي اختيار الطبري ايضاً . (٢) هذا ما رجحه الطبري وأبو السعود .

لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴿٤٢﴾

للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم **﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾** أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله **﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** أي ولا يؤ منون الايمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والآية في المنافقين **﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾** أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب **﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾** الإستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعةٍ ووبالٍ عليهم في الايمان بالله والإنفاق في سبيله ؟ قال الزمخشري : وهذا كما يقال للمنتقم : ما ضرك لو عفوت ؟ وللعاقّ : ما كان يرزؤك لو كنت باراً ؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة[1] **﴿وكان الله بهم عليماً﴾** وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾** أي لا يبخس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير **﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾** أي وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمّها ويجعلها أضعافاً كثيرة **﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾** أي ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمةٍ بنبيها يشهد عليها ، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان ؟ ! كيف يكون موقفهم ؟ وكيف يكون حالهم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع **﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾** أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله **﴿لو تُسوّى بهم الأرض﴾** أي لو يدفنوا في الأرض ثم تُسوّى بهم كما تُسوّى بالموتى ، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تراباً﴾ وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة **﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾** اي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه[2] . . ثم أمر تعالى باجتناب الصلاة في حال السكر والجنابة

(١) الكشاف ١/ ٣٩٥ .

(٢) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل : إن الجملة معطوفة على السابق اي يودون ان يدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون ان تسوى بهم الأرض . انظر الكشاف ٣٩٦/١ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه أنه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت « قل يا أيها الكافرون ∗ أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[1] الآية ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أو لامستم النساء﴾ قال ابن عباس : هو الجماع ﴿فلم تجدوا ماءً﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي يرخّص ويسهّل على عباده لئلا يقعوا في الحرج .

البلاغة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإطناب في قوله ﴿نصيب مما اكتسبوا . . ونصيب مما اكتسبن﴾ وفي ﴿حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ وفي ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ .

٢ ـ الاستعارة في ﴿مما اكتسبوا﴾ شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالإكتساب واشتق من لفظ الاكتساب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية .

٣ ـ الكناية في ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لامستم النساء﴾ قال ابن عباس معناه : جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ .

٤ ـ صيغة المبالغة في ﴿الرجال قوامون﴾ لأن فعّال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار .

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

٥ ـ السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿فكيف إذا جئنا﴾ يراد بها التقريع والتوبيخ .

٦ ـ جناس الاشتقاق في ﴿حافظات . . بما حفظ﴾ وفي قوله ﴿بشهيد . . وشهيداً﴾ .

٧ ـ التعريض في ﴿مختالاً فخوراً﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس .
٨ ـ الحذف في عدة مواضع مثل﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً .

الفَوَائِد : الأولى : لم يذكر الله تعالى في الآية إلا « الإصلاح » في قوله ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي على الحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفريق خراب البيوت وتشتيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب .

الثانية : ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول : لا تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليٌّ قاهر ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن ، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه .

الثالثة : روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ إقرأ عليَّ القرآن فقلت يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : نعم فإني أحب أن أسمعه من غيري ! ! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال : حسبك الآن فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان .

تَنْبِيه : ورد النظم الكريم ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ ولو قال : بتفضيلهم عليهن لكان أخصر وأوجز ولكنَّ التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضوٍ من جسم الإنسان وكذلك العكس ، فالرجل بمنزلة الرأس ، والمرأة بمنزلة البدن ولا ينبغي أن يتكبر عضوٌ على عضو ، فالأذن لا تغني عن العين ، واليد لا تغني عن القدم ، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحدٍ عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بعضهم على بعض﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز .

« كلمة حول تأديب النساء »

لعل أخبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون : كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداءً على كرامتها ؟ !

والجواب : نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب ؟ ولمن يكون ؟ إن الضرب ـ ضرباً غير مبرِّح ـ كما ورد به الحديث الشريف أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج ، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتنقلب الحياة الزوجية إلى

جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة ؟ ! لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة ، ثم بالوعظ والإرشاد ، ثم بالهجر في المضاجع ، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بدَّ من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرِّح لكسر الغطرسة والكبرياء ، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها ، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسناً وجميلاً وما أحسن ما قيل « وعند ذكر العمى يُستحسن العَوَر » فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والإحسان والجميل ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ ! !

* * *

قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب . . إلى . . وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٥٧) .

سَبَبُ النّزول : روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أحبار اليهود - إنك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد ؟ فقال : اعرضوا عليَّ دينكم فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقري الضيف ، ونعمر بيت ربنا ، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم !! فقال : دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . .﴾[1] الآية .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى شيئاً من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً . . أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله ، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعاذنا الله منها .

اللغَــة : ﴿راعنا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة ﴿أقوم﴾ أعدل وأصوب ﴿نطمس﴾ الطمس : المحو وإذهاب أثر الشيء ﴿فتيلاً﴾ الفتيل : الخيط الذي في شق النواة ﴿الجبت﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملاً لكل باطل ﴿الطاغوت﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل هو اسم للشيطان ﴿نقيراً﴾ النقير : النقطة التي على ظهر النواة ﴿نصليهم﴾ ندخلهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

التفسِير : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الاستفهام للتعجيب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم أي ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يشترون الضلالة﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿والله أعلم

(١) أسباب النزول ص ٨٩ والطبري ٨/ ٤٦٨ .

بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا
نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ

﴿بأعدائكم﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالِّين منكم فاحذروهم **﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾** أي حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم . . ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللعناء فقال **﴿من الذين هادوا يحرفون الكَلِم عن مواضعه﴾** أي من هؤلاء اليهود فريق يبدّلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيّروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك **﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾** أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان سمعنا قولك وعصينا أمرك قال مجاهد : سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في الكفر والعناد **﴿واسمع غير مسمع﴾** أي اسمع ما نقول لاسمعتَ والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لاسمعتَ مكروهاً ولكنَّ اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعكَ الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت **﴿وراعنا﴾** أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سبٍّ من الرعونة وهي الحُمْق ، فكانوا سخريةً وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ولهذا قال تعالى **﴿لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾** أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام قال ابن عطية : وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربّون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير[1] **﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾** أي عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا **﴿واسمع وانظرنا﴾** أي عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع **﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾** أي لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب **﴿ولكنْ لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً قال الزمخشري : أي ضعيفاً ركيكاً لا يُعبأ به[2] وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل . . ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا﴾** أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ **﴿مصدقاً لما معكم﴾** أي مصدقاً للتوراة **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردَّها على أدبارها﴾** أي نطمس منها الحواس من أنفٍ أو عينٍ أو حاجب حتى تصير كالأدبار ، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس[3] **﴿أو نلعنهم كما**

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٦٤ . (٢) الكشاف ١/ ٤٠١ . (٣) وهو اختيار الطبري حيث قال : أي من قبل ان نطمس أبصارها ونمحو آثارها فنسوّيها كالأقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقرى .

ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ

لعنا أصحاب السبت﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير **﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾** أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة **﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده **﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾** أي من أشرك بالله فقد اختلق إثماً عظيماً قال الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله . .[1] ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال **﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾** أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى ؟ والاستفهام للتعجيب من أمرهم قال قتادة : ذلكم أعداء الله اليهود زكّوا أنفسهم فقالوا **﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾** وقالوا : لا ذنوب لنا[2] **﴿بل الله يزكي من يشاء﴾** أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار **﴿ولا يُظْلمون فتيلاً﴾** أي لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثلٌ للقلة كقوله **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾** **﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾** هذا تعجيب من افترائهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟ **﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾** أي كفى بهذا الافتراء وزراً بيناً وجرماً عظيماً **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾** الاستفهام للتعجيب والمراد بهم أيضاً اليهود أُعطوا حظاً من التوراة وهم مع ذلك يؤمنون بالأوثان والأصنام وكلّ ما عبد من دون الرحمن **﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾** أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه قال ابن كثير : يفضّلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم[3] قال تعالى إخباراً عن ضلالهم **﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾** أي طردهم وأبعدهم عن رحمته **﴿ومن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيراً﴾** أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله ؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم **﴿أم لهم نصيبٌ من المُلك﴾** أي أم لهم حظٌ من الملك ؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس

(١) الطبري ٨/ ٤٥٠ . (٢) الطبري ٨/ ٤٥٢ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٤٠٣ .

فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

لهم من الملك شيء ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم ، والنقير مثلٌ في القلة كالفتيل والقطمير وهو النكتة في ظهر النواة ، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ قال ابن عباس : حسدوا النبيﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى : بل أيحسدون النبيﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرّف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين ؟ ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلأي شيء تخصون محمداًﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم ؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبيﷺ والإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه﴾ أي من اليهود من آمن بمحمدﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ أي كفى بالنار المسعّرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم . . ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ،قال الحسن : تُنْضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فعادوا كما كانوا وقال الربيع : جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وبطنُه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وفي الحديث (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضرسه مثل أحد)[1] ﴿إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾ أي عزيز لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذّب إلا بعدل ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي

(١) أخرجه أحمد في المسند .

لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقذار والأذى قال مجاهد : مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد قال الحسن : وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم ، وفي الحديث (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها)[1] .

البَــلاَغَــة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بالإيجاز :

١ ـ المجاز المرسل في ﴿أم يحسدون الناس﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين .

٢ ـ الاستعارة في ﴿يشترون الضلالة﴾ وفي ﴿ليذوقوا العذاب﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿لياً بألسنتهم﴾ لأن أصل اللّيّ فتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نطمس وجوهاً﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عُمّيت سطورها وأشكلت حروفها .

٣ ـ الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿ألم تر﴾ في موضعين .

٤ ـ التعجب بلفظ الأمر في ﴿انظر كيف يفترون﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يفترون﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار .

٥ ـ الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتقريع في ﴿أم لهم نصيب﴾ وفي ﴿أم يحسدون﴾ .

٦ ـ التعريض في ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ عرَّض بشدة بخلهم .

٧ ـ الطباق في ﴿وجوه . . وأدبار﴾ وفي ﴿آمنوا . . وكفروا﴾ .

٨ ـ جناس الاشتقاق في ﴿نلعنهم . . ولعنّا﴾ وفي ﴿يؤتون . . وآتاهم﴾ وفي ﴿ظلاً ظليلاً﴾ .

٩ ـ الإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات . . . إلى . . وكفى بالله عليماً﴾

من آية (٥٨) إلى نهاية آية (٧٠) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء

(١) أخرجه الشيخان .

الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها .

اللغة : ﴿نعمّا﴾ أصلها نعم ما أي نعم الشيء يعظكم به ﴿تأويلاً﴾ مآلاً وعاقبة ﴿يزعمون﴾ الزعم : الاعتقاد الظني قال الليث : أهل العربية يقولون : زعم فلان إذا شكُّوا فيه فلم يعرفوا أكَذَب أو صدَقَ وقال ابن دريد : أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم « زعموا مطيّةُ الكذب » ﴿توفيقاً﴾ تأليفاً والوفاق والوَفْق ضد المخالفة ﴿بليغاً﴾ مؤثراً ﴿شجر﴾ اختلف واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حرجاً﴾ ضيقاً وشكاً قال الواحدي : يقال للشجر الملتف الذي لا يكاد يوصل إليه حرج .

سبب النزول : أ ـ روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق « عثمان بن طلحة » باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال : لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه فلوى عليٌّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر علياً أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان : آذيتَ وأكرهت ثم جئتَ تترفق ! ! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . .﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ : (خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم)[١] .

ب ـ عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له «بِشْر» كان بينه وبين يهودي خصومةٌ فقال اليهودي : تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق : بل نتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ـ وهو الذي سماه الله الطاغوت ـ فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي على المنافق ، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال : تعال نتحاكمْ إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي : كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فقال عمر للمنافق : أكذلك هو ؟ فقال : نعم فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد ـ أي مات ـ وقال : هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك . .﴾[٢] الآية .

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا

التفسير : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواءً كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري : الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة ،[٣] والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها قال ابن كثير : يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على

(١) الفخر الرازي ١٠/ ١٣٨ وأسباب النزول ص ٩٠ . (٢) الكشاف ١/ ٤٠٦ والقرطبي ٥/ ٢٦٤ . (٣) الكشاف ١/ ٤٠٥ .

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ

عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها[1] ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ فيه وعدٌ ووعيد أي سميعٌ لأقوالكم بصير بأفعالكم ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ، وفي قوله ﴿منكم﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب ان يكونوا مسلمين حساً ومعنى ، لحماً ودماً ، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل : إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً . . ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدّعون الايمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ تعجيبٌ من أمر من يدّعي الايمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الايمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت قال ابن عباس هو « كعب بن الأشرف » أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وقد أُمروا أن يكفروا به﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالايمان بالله والكفر بما سواه كتوله ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ أي ويريد الشيطان بما زيّن لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رأيتَ المنافقين يصدون عنك

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٠٥ .

صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم

صدوداً﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً **﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب ؟ **﴿ثم جاءُوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾** أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للإعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيباً لهم **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾** أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام المعسول **﴿فأعرض عنهم﴾** أي فأعرضْ عن معاقبتهم للمصلحة ولا تُظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجلٍ وحذر **﴿وعظهم﴾** أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات **﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾** أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً ، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال **﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله﴾** أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعةٌ للّه ومعصيته معصيةٌ للّه **﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله﴾** أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم **﴿واستغفر لهم الرسول﴾** أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم **﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾** أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم﴾** اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور **﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليماً﴾** أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك ، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة ، فحقيقةُ الإيمان الخضوع والإذعان **﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾** أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات وشدّدنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل **﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾** أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿ولو أنهم فعلوا ما يُوعظون به لكان خيراً لهم وأشـد تثبيتاً﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشدَّ تثبيتاً لإيمانهم ، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وإذاً لآتيناهـم من لدنـا أجراً عظيمـاً﴾ أي أرشدناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم ، ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿ومن يطـع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهـم﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله ، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿من النبيّين والصدّيقين والشهـداء والصالحيـن﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصديقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وحسـن أولئك رفيقاً﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم ، وحَسُن رفيق أولئك الأبرار ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ فعلمتُ أنه خيِّر[1] ﴿ذلك الفضل من اللـه﴾ أي ما أُعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى ﴿وكفـى بالله عليماً﴾ أي وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع عالماً بمن يستحق الفضل والإحسان .

البـــلاغـــة : تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبديع ما يلي باختصار :

١ ـ الاستفهام المراد به التعجب في ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ .

٢ ـ الالتفـات في ﴿واستغفـر لهـم الرسـول﴾ تفخيماً لشـأن الرسـول وتعـظيماً لاستغفـاره ولو جرى على الأصل لقال ﴿واستغفرت لهم﴾ .

٣ ـ إيراد الأمـر بصـورة الإخبـار وتصـديره بـ « إنَّ » المفيدة للتحقيق في قولـه ﴿إن الله يأمركم﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامتثال .

٤ ـ الجناس المغاير في ﴿يضلهـم ضلالاً﴾ وفي ﴿قـل لهـم . . قولاً﴾ وفي ﴿يسلمـوا تسليمـاً﴾ وفي ﴿يصدون . . صدوداً﴾ وفي ﴿فأفوز فوزاً﴾ .

٥ ـ الاستعارة في قولـه ﴿فيما شجـر بينهـم﴾ استعـار ما اشتبـك وتضايـق من الشجـر

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤١١ .

للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس .

٦ ـ تكريم الاسم الجليل ﴿إن الله يأمركم﴾ ﴿إن الله نِعِمّا يعظكم﴾ ﴿إن الله كان سميعاً﴾ لتربية المهابة في النفوس .

٧ ـ الإطناب في مواضع والحذف في مواضع .

فَـائِـدَة : عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إليَّ من نفسي وأحبُّ إليَّ من أهلي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرتُ موتي وموتك عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنةُ رفعتَ مع النبيين وإن دخلتُ الجنة خشيتُ أن لا أراك فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . .﴾[١] الآية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . . . إلى . . ومن أصدق من الله حديثاً﴾ من آية (٧١) إلى نهاية آية (٨٧) .

المُنَاسَبَة : لما حذّر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله ، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه،وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغتة الكفار، ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المثبطين للعزائم من المنافقين وحذّر المؤمنين من شرهم .

اللغَـة : ﴿ثُبات﴾ جمع ثُبتة وهي الجماعة أي جماعة بعد جماعة ﴿بروج﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مشيّدة﴾ مرتفعة البناء ﴿بيَّت﴾ دبَّر الأمر ليلاً ، والبيَاتُ أن يأتي العدوّ ليلاً ومنه قول العرب: أمرٌ بُيِّتَ بليل ﴿أذاعوا به﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يستنبطونه﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿حرِّض﴾ التحريض : الحث على الشيء ﴿تنكيلاً﴾ تعذيباً والنكالُ : العذابُ ﴿كفل﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مقيتاً﴾ مقتدراً من أقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر :

وذي ضِغْنٍ كففتُ النفس عنه ... وكنتُ على مساءته مُقيتاً

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبيَّ الله لقد كنا في عزٍ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ؟ فقال : إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفّوا فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة . .﴾[٢] الآية .

---

(١) أخرجه ابن مردويه . (٢) أسباب النزول ص ٩٦ والقرطبي ٥/ ٢٨١ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾

التفسير : ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿**فانفروا ثُباتٍ أو انفروا جميعاً**﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين ، سريةً بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف ، فخيَّرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿**وإنَّ منكم لَمَن ليبطئــنَّ**﴾ أي ليتثاقلنَّ ويتخلفنَّ عن الجهاد ، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ﴿**فإن أصابتكم مصيبة**﴾ أي قتلٌ وهزيمة ﴿**قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً**﴾ أي قال ذلك المنافق قد تفضَّل الله عليَّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأُقتل ضمن من قتلوا ﴿**ولئن أصابكم فضلٌ من الله**﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿**ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً**﴾ أي ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة يا ليتني كنتُ معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة ، وجملة ﴿**كأن لم تكن**﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم ، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام . ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿**فلْيقاتل في سبيل الله الذين يَشرون الحياةَ الدنيا بالآخرة**﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيُقْتل أو يَغْلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواءً غَلَب أو غُلِب أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيُستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنيين : الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلاجهادٌ في سبيلي ، وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي فهو عليَّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة)[1] ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد ؟ ! وقوله ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾

١) أخرجه مسلم .

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾

بيانٌ للمستضعفين قال ابن عباس : كنتُ أنا وأمي من المستضعفين ، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول : اللهم أنْج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام الخ كما في الصحيح ﴿**الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية**﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضُرّ عنهم قائلين : ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة إذ أنها كانت موطن الكفر ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿**الظالم أهلُها**﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿**واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً وسخّر لنا من عندك وليّاً وناصراً . وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير وليّ وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولّى عليهم « عتّاب بن أسيد » فأنصف مظلومهم من ظالمهم ، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد فقال ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله**﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سامٍ وغاية نبيلة وهي نصرة دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿**والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**﴾ أي وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان**﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار واعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم ، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان ، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يَغْلب لأن الله وليُّه وناصرُه ، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب وهذا قال ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ أي سعيُ الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله ؟ ! قال الزمخشري : كيدُ الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه[1] ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ أي ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم : أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته وأعدّوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿**فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية**﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد من ذلك ، قال ابن كثير : كان المؤمنون في إبتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين وكانوا يتحرقون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم فلما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة الناس خوفاً شديداً[2] ﴿**وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال**﴾ أي وقالوا جزعاً من الموت ربنا لم فرضت علينا القتال ؟ ﴿**لولا أخرتنا إلى أجلٍ**

(١) الكشاف ١/ ٤١٤ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤١٣ .

لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

قريب﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاّ أي هلاّ أخرتنا إلى أجل قريب حتى نموتَ بآجالنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء ! ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي قل لهم يا محمد إن نعيم الدنيا فانٍ ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتثل أمره ﴿ولا تُظلمون فتيلاً﴾ أي لا تُنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق النواة قال في التسهيل : إن الآية في قومٍ من الصحابة كانوا قد أُمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به ، فلما أُمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت ، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام[1] ﴿أينما تكونوا يدركْكم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة﴾ أي في أي مكانٍ وجدتم فلا بدّ أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنةٌ من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة وجوع وشبه ذلك يقولوا هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه قال السدي : يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿وإن تصبْهم سيئةٌ يطيَّروا بموسى ومن معه﴾ ﴿قل كلٌّ من عند الله﴾ أمرﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء : الحسنةُ والسيئة والنعمةُ والنقمة كلٌّ ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله ؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم . . ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان ﴿ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً ، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ . . ثم قال تعالى مخاطباً الرسول ﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس أجمعين تبلغهم شرائع الله وحسبك

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١ / ١٤٨ واختار هذا القرطبي وأبو حيان وهو الأرجح قال في البحر : الظاهر ان القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى اذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالصُ الايمان ولهذا جاء السياق بعده ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق آهـ البحر ٣/ ٩٢٨ .

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

أن يكون الله شاهداً على رسالتك ، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله لأنه مبلّغ عن الله ﴿**ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ ﴿**ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول**﴾ أي ويقول المنافقون : أمرك يا محمد طاعة كقول القائل « سمعاً وطاعةً » فإذا خرجوا من عندك دبّر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿**والله يكتب ما يبيتون**﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿**فأعرضْ عنهم وتوكل على الله**﴾ أي اصفح عنهم وفوّض أمرك إلى الله وثق به ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه ، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلقاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزه عن ذلك فأخباره صدق ، ونظمه بليغ ، ومعانيه محكمة ، فدلَّ على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿**وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به**﴾ أي إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿**ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ أي لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً**﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم ، ثم أمر الرسول بالجهاد فقال ﴿**فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك**﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المنافقين عنك ﴿وحرِّض المؤمنين﴾ أي شجِّعهم على القتال ورغبْهم فيه ﴿عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم و﴿عسى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شرّ الكفرة الفجار ، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكة ﴿والله أشدُّ بأساً وأشد تنكيلاً﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة ، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿ومن يشفع شفاعة سيئةٍ يكن له كفلٌ منها﴾ أي ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي مقتدراً فيجازي كل أحدٍ بعمله ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلّم أو رُدُّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ للجزاء والحساب ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين .

البَلاَغَة : تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة في قوله ﴿يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ اي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة .

٢ ـ الاعتراض في ﴿كأن لم يكن بينكم وبينه مودة﴾ .

٣ ـ التشبيه المرسل المجمل في ﴿يخشون الناس كخشية الله﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿الأمن أو الخوف﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق في ﴿أصابتكم مصيبة﴾ وفي ﴿حييتم فحييوا﴾ وفي ﴿يشفع شفاعة﴾ وفي ﴿بيَّت . . ويبيتون﴾ .

٦ ـ الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟

٧ ـ المقابلة في قوله ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾

وكذلك في قوله ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفلٌ منها﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أي يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب .

تـنبيـه : لا تعارض بين قوله تعالى ﴿قل كلٌ من عند الله﴾ أي كلٌ من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أو نقول : نسبة الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ (الخير كلُّه بيديك والشرُّ ليس إليك) والله أعلم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . . . إلى . . ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٨٨) إلى نهاية آية (٩٦) .

المنَاسـبَة : لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية ، عقَّبه بذكر نوعٍ آخر من أحوال المنافقين الشنيعة ، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد ، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين ، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة .

اللغـة : ﴿أركسهم﴾ ردّهم إلى الكفر أو نكّسهم وأصل الركس ردُّ الشيء مقلوباً قال الشاعر :

فأُركسـوا في حميم النـار إنهم كانوا عصاةً وقالوا الإفك والزورا[1]

﴿حصرت﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿السَّلم﴾ الاستسلام والإنقياد ﴿ثقفتموهم﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فتبينوا﴾ فتثبتوا ﴿أُركسوا فيها﴾ قلبوا فيها .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أُحد فرجع ناسٌ ممن كان معه ، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم ، وقال بعضهم : لا ، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . .﴾ الآية فقال ﷺ : (إنها طيبة تنفي الخَبث كما تنفي النـار خبـث الحـديد) أخرجـه الشيخان .

ب ـ يروى أن « الحارث بن يزيد » كان شديداً على النبي ﷺ فجاء مهاجراً وهو يريد الإسلام فلقيه « عياش بن أبي ربيعة » ـ والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر ـ فقتله فأنزل الله ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً﴾[2] الآية .

ج ـ عن ابن عباس قال : لحق المسلمون رجلاً في غنيمةٍ له فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمناً . .﴾[3] الآية .

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت . (٢) أسباب النزول ص ٩٧ . (٣) رواه البخاري .

* ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾

التفسير : ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا**﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين ، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول لا نقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكّسهم وردّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿**أتريدون أن تهدوا من أضل اللهُ**﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير لأن الله حكم بضلالهم ﴿**ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً**﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستووا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله**﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿**فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرم ﴿**ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً**﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿**إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ أي إلا الذين ينتهون ويلجأون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحِلْف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿**أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم**﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلا الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿**ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم**﴾ أي من لطفه بكم أن كفّهم عنكم ولو شاء لقوّاهم وجرّأهم عليكم فقاتلوكم ﴿**فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً**﴾ أي فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم طالما سالموكم ﴿**ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم**﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم قال أبو السعود : هم قوم من « أسد وغطفان » كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا

كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾

عهودهم ليأمنوا قومهم[1] **﴿كلما ردّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها﴾** أي كلما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقُلبوا فيه على اسوأ شكل فهم شرٌ من كل عدو شرير **﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم﴾** أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم **﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم **﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾** أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم **﴿وما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلا خطأً﴾** أي لا ينبغي لمؤمنٍ ولا يليق به أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ لأن الإيمان زاجرٌ عن العدوان **﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلمةٌ إلى أهله إلا أن يَصَّدَّقوا﴾** أي ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبةٍ مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، وعليه كذلك ديةٌ مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية ، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين : الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة في مال القاتل ، والدية وهي مائةٌ من الإبل على العاقلة **﴿فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنة﴾** أي إن كان المقتول خطأً مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين **﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾** أي وإن كان المقتول خطأً من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق رقبة مؤمنة **﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾** أي فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم **﴿وكان الله علياً حكيماً﴾** أي علياً بخلقه حكيماً فيما شرع . . ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾** أي ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها على الدوام ، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن كما قال ابن

(١) انظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣/ ٣٢٦ وفي ابن كثير ١/ ٤٢٢ من المختصر

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً ﴿وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ أي ويناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ أي إذا سافرتم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطامٌ سريع الزوال ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعده لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا﴾ أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومنَّ عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي مطلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس : هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها ، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله : هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله ﴿غير أولي الضرر﴾ ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ : (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر)[١] ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضررٍ لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)[٢] .

(١) أخرجه البخاري . (٢) أخرجه النسائي .

البَلاَغَة : تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فما لكم في المنافقين﴾ ؟ وفي ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ ؟ .

٢ ـ الطباق في ﴿أن تهدوا من أضلَّ اللهُ﴾ وكذلك ﴿القاعدون . . والمجاهدون﴾ .

٣ ـ والجناس المغاير في ﴿تكفرون كما كفروا﴾ وفي ﴿مغفرة . . وغفوراً﴾ .

٤ ـ الإطناب في ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم . . وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ وكذلك في ﴿أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ .

٥ ـ الاستعارة في ﴿إذا ضربتم في سبيل الله﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله ، ففيه استعارة الضرب للجهاد ، واستعارة السبيل لدين الله .

٦ ـ المجاز المرسل في ﴿فتحرير رقبة﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك .

الفَوَائِد : القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد وقد قالﷺ : (من أعان على قتل مسلم مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه آيسٌ من رحمة الله)[1] وفي الحديث أيضاً (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن)[2] ولهذا أفتى ابن عباس بعدم قبول توبة القاتل ، أعاذنا الله من ذلك .

تَنْبِيه : أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبةٍ مؤمنة والحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياءٌ لها ، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فما الذين فُضِّلوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾ وقولهﷺ في مرضه الذي مات فيه (الصلاة الصلاةَ ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون) ومن يطّلع على معاملة الزنوج في أمريكا يتضح له جلياً صحة ما نقول ، وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار ، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب ، باسم الاستعمار والانتداب ، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنيَّة الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد ؟ !

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . . . إلى . . وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١١٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه . (٢) أخرجه البيهقي .

المناسبة : لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار ، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر ، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب ، ثم لما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافر وطريقة صلاة الخوف ، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتهم ظلماً بالسرِّقة وإدانة الذين تآمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة .

اللغة : ﴿مُراغماً﴾ مذهباً ومتحولاً مشتق من الرّغام وهو التراب قال ابن قتيبة: المُراغم والمُهَاجر واحد وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مُراغماً لهم أي مغاضباً فقيل للمذهب مُرَاغَماً وسمي مصيره إلى النبي ﷺ هجرة[1] ﴿سعة﴾ اتساعاً في الرزق ﴿تَقْصُرُوا﴾ القصر : النقص يقال قصر صلاته إذا صلّى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد : فيها ثلاث لغات قصرتُ الصلاة وقصّرتها وأقصرتها[2] ﴿تغفلون﴾ الغفلة : السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿موقوتاً﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجه عن وقته ﴿تهنوا﴾ تضعفوا ﴿خصيماً﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خواناً﴾ مبالغاً في الخيانة .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال : كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة ـ وكانوا يستخفون بالإسلام ـ فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا على الخروج فنزلت ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . .﴾[3] الآية .

ب ـ كان ضمرة بن القَيس من المستضعفين بمكة وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لستُ من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق . والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[4] .

ج ـ روي أن رجلاً من الأنصار يقال له « طُعمة بن أُبيرق » من بني ظفر سرق درعاً من جاره « قتادة ابن النعمان » في جراب دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرقٍ فيه فخبأها عند « زيد بن السمين » اليهودي فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال : دفعها إليَّ طُعْمة وشهد له ناسٌ من اليهود فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . .﴾ الآية وهرب طُعْمة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله[5] .

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤ . (٢) القرطبي ٥/ ٣٦٠ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٤٢٧ .
(٤) القرطبي ٥/ ٣٤٩ . (٥) أبو السعود ١/ ٣٨٠ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

التفسير : **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾** أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الايمان **﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾** أي تقول لهم الملائكة في أيّ شيء كنتم من أمر دينكم ؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتذرين : كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها **﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً : أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دارٍ تقدرون فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة ؟ قال تعالى بياناً لجزائهم **﴿فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾** أي مقرهم النار وساءت مقراً ومصيراً ، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال **﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾** أي لكن من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة **﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾** أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً **﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾** أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار ، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة﴾** هذا ترغيبٌ في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء يجد مُهاجراً ومتجولاً في الأرض كبيراً يُراغم به أنف عدوه ويجد سعةً في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابغ على العباد **﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾** **﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾** أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** أي ساتراً على العباد رحيماً بهم **﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تَقْصروا من الصلاة﴾** أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين **﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾** أي إن

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾

خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة ، وذكرُ الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤيده حديث « يعلى بن أمية » قال قلت لعمر بن الخطاب : إن الله يقول ﴿إن خفتم﴾ وقد أمن الناس فقال : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال (صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) ﴿**إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً**﴾ أي إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم**﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو ﴿**فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك**﴾ أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصلِّ إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿**وليأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم**﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿**ودّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة**﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة ، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون والمعنى لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أُمرتم به ﴿**ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم**﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها ﴿**وخذوا حذركم**﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما استطعتم ﴿**إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ أي أعدَّ لهم عذاباً مخزياً مع الإهانة ، روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزُرقي قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد ـ وهم بيننا وبين القبلة ـ فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غرتهم ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾[1] الآية ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة الخوف فقال ﴿**فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ أي فإذا فرغتم من الصلاة

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٣١ .

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم واذكروه في جميع الحالات لعله ينصركم على عدوكم **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾** أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها كما أمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** أي فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه ، ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾** أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدّوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد **﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾** أي إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضاً منه كما تتألمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم **﴿وكان الله علياً حكيماً﴾** أي علياً بمصالح خلقه حكيماً في تشريعه وتدبيره ، قال القرطبي : نزلت هذه الآية في حرب أحد حيث أمرﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة ، وقيل : هذا في كل جهاد [٢]. **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾** أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبساً بالحق لتحكم بين الناس بما عرّفك الله وأوحى به إليك **﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾** أي لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم ، والمراد به « طعمة بن أبيرق » وجماعته **﴿واستغفر الله﴾** أي استغفر الله مما هممتَ به من الدفاع عن طُعْمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** أي مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره **﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾** أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي **﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾** أي لا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام **﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾** أي يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يُستحيا منه ويخاف من عقابه **﴿وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول﴾** أي وهو معهم جل وعلا عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب **﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾** أي لا يعزب عنه شيء منها

(٢) القرطبي ٥/ ٣٧٤ .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ولا يفوت . . ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طُعْمة ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ أي ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ أي فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾؟؟ أي من يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه ؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ أي من يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن عباس : عرض اللهُ التوبة بهذه الآية على بني أبيرق ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي من يقترف إثماً متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إثماً كبيراً ﴿ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرماً وذنباً واضحاً ، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته همت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لهمت جماعة منهم أن يضلوك عن الحق ، وذلك حين سألوا الرسولﷺ أن يبرىء صاحبهم « طُعْمة » من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وما يُضِلّون إلا أنفسهم﴾ أي وبال إضلالهم راجع عليهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ أي وما يضرونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى يُنزل عليك الكتاب ويوحي إليك بالأحكام ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة .

البــلاغـــة : تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيا يلي :

١ ـ الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع في ﴿قالوا فيم كنتم﴾ ؟ وفي ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾ ؟

٢ ـ إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أريد بها صلاة الخوف .

٣ ـ الجناس المغاير في ﴿يعفو . . عفواً﴾ وفي ﴿يهاجر . . مهاجراً﴾ وفي ﴿يختانون . . خواناً﴾ وفي ﴿يستغفر . . غفوراً﴾ .

٤ ـ إطلاق الجمع على الواحد في ﴿توفاهم الملائكة﴾ يراد به ملك الموت وذكر بصيغة الجمع تفخيماً له وتعظيماً لشأنه .

٥ ـ طباق السلب ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ .

٦ ـ الاطناب بتكرار لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم . . إلى . . فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ . من آية (١١٤) إلى نهاية آية (١٣٤) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة طُعْمة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتآمرهم في السرّ لإيقاع البريء بها ، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السرّ يعلمه الله ، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح ، ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذَّر من الشيطان وطرق إغوائه ، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن ، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إمّا بالوفاق أو بالفراق .

اللغة : ﴿نجواهم﴾ النجوى : السرُّ بين الإثنين قال الواحدي : ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يشاقق﴾ يخالف والشقاقُ: الخلاف مع العداوة لأن كلاً من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر ﴿مريداً﴾ المريد : العاتي المتمرد من مرد إذا عتا وتجبر قال الأزهري : مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ﴿فليبتِّكنَّ﴾ البتك : القطع ومنه سيف باتك أي قاطع ﴿محيصاً﴾ مهرباً من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل « وقعوا في حيص بيص » أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خليلاً﴾ من الخلة وهي صفاء المودة قال ثعلب : سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته قال بشار :

قد تخلّلتِ مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلاً[1]

﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة .

(١) القرطبي ٥/ ٤٠٠ .

سَبَبُ النّزول : أ ـ لما سرق « طُعْمة بن أبيرق » وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبيّن له الهدى﴾[1] الآية .

ب ـ قال قتادة : تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحقُّ بالله منكم ، وقال المؤمنون : نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾[2] الآية .

* ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾

التفسِير : ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقةٍ ليعطيها سراً أو أمر بطاعة الله قال الطبري : المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير ، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمَين[3] ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة قال الصاوي : والتعبير بسوف إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي يخالف أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿نولِّه ما تولى ونصله جهنم﴾ أي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿وساءت مصيراً﴾ أي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي فقد بَعُد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ أي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث « اللات والعزى ومناة » قال في التسهيل: كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة[4] ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ أي وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿لعنه الله وقال لأتخذنَّ من

(١) القرطبي ٥/ ٣٨٥ . (٢) أسباب النزول ص ١٠٤ . (٣) الطبري ٩/ ٢٠١ . (٤) وهذا اختيار الطبري وقيل : إن المراد بالإناث الملائكة كقوله تعالى ﴿ليسمون الملائكة تسمية الأنثى﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله .

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ

عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي أبعده الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً : لأتخذنَّ من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة « إبعثْ بعثَ النار فيقول : وما بعثُ النار ؟ فيقول من كل ألفٍ تسعمائةٌ وتسعة وتسعون » ﴿ولأضلنّهم ولأمنينّهم﴾ أي لأصرفنّهم عن طريق الهدى وأعدهم الأماني الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿ولآمرنهم فليبتكنَّ آذان الأنعام﴾ أي ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام قال قتادة : يعني تشقيقها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿ولآمرنهم فليغيرُنَّ خلق الله﴾ أي ولآمرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل : المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي[1] وإحلال ما حرّم الله وتحريم ما أحل ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله﴾ أي ومن يتول الشيطان ويطعْه ويترك أمر الله ﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسرانٍ أعظم من هذا ؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿يعدهم ويمنّيهم﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالأكاذيب والأباطيل قال ابن كثير : هذا إخبارٌ عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك[2] ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً قال ابن عرفة : الغُرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه ، فهو مزيّن الظاهر فاسد الباطن ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم .﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب ، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرار فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿وعد الله حقاً﴾ أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً ؟ والاستفهام معناه النفيُ أي لا أحد أصدق قولا من الله قال أبو السعود : والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه[3] ﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري : ليس الايمان بالتمني ولكنْ ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن

(١) هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وهو اختيار الطبري . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٣٩ . (٣) أبو السعود ١/ ٣٨٤ .

ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟

بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواءً كان ذكراً أو أنثى بشرط الايمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾ أي يدخلهم الله الجنة ولا يُنقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف لا والمجازي أرحم الراحمين !! وإنما قال ﴿وهو مؤمن﴾ ليبيّن أن الطاعة لا تنفع من دون الايمان . ثم قال تعالى ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ ؟ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وهو محسن﴾ أي مطيعٌ لله مجتنبٌ لنواهيه ﴿واتبع ملة ابراهيم حنيفاً﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن ، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الاسلام ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي صفياً اصطفاه لمحبته وخلته قال ابن كثير : فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه[1] ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا رادّ لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ أي قل لهم يا محمد : يبين الله لكم ما سألتم في شأنهنَّ ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهنَّ وترغبون أن تنكحوهن﴾ أي ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهنَّ ولا تدفعون لهن مهورهنَّ كاملة فنهاهم الله عز وجل عن ذلك قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة وأحبها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمةً منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها ، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي ويفتيكم في

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٢

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ

المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر ، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون : كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً ! فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث **﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾** أي وما تفعلوه من عدلٍ وبرٍّ في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير : وهذا تهييجٌ على فعل الخيرات وامتثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء[1] . ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال **﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾** أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجمل منها **﴿فلا جُناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً﴾** أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول : لا تطلقني وأنت في حلٍّ من شأني[2] **﴿والصلح خير﴾** أي والصلح خيرٌ من الفراق **﴿وأحضرت الأنفسُ الشح﴾** أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها **﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾** أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن **﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء . . ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغٌ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق ، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾** أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسوّوا بينهن في المحبة والأُنس والاستمتاع **﴿ولو حرصتم﴾** أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان **﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾** أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة ، شبّهت بالشيء المعلّق بين السماء والأرض ، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء ، وهذا من أبلغ التشبيه **﴿وإن تصلحوا وتتقوا﴾** أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل **﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾** أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم **﴿وإن يتفرقا يُغْنِ الله كلاً من سعته﴾** أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ، فإن

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٣.(٢) الطبري ٩/ ٢٧١.

وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

الله يغنيه بفضله ولطفه ، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه ، وعيشاً أهنأ من عيشه **﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾** أي واسع الفضل على العباد حكيماً في تدبيره لهم **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾** أي ملكاً وخلقاً وعبيداً **﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾** أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة **﴿أن اتقوا الله﴾** أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته **﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾** أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغنٍ عن العباد وهو المالك لما في السموات والارض **﴿وكان الله غنياً حميداً﴾** أي غنياً عن خلقه ، محموداً في ذاته ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾** أي كفى به حافظاً لأعمال عباده **﴿إن يشأ يُذْهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾** أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم **﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾** أي قادراً على ذلك **﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾** أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأخسّ ولا يطلب الأعلى ؟ فليسأل العبد ربه خيري الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة في **﴿أسلم وجهه لله﴾** استعار الوجه للقصد والجهة وكذلك في قوله **﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾** لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة[1] .

٢ ـ الجناس المغاير في **﴿ضل . ضلالاً﴾** وفي **﴿خسر . . خسراناً﴾** وفي **﴿أحسن . . محسن﴾** وفي **﴿صلحاً . . والصلح﴾** وفي **﴿تميلوا كل الميل﴾** .

٣ ـ التشبيه في **﴿فتذروها كالمعلقة﴾** وهو مرسل مجمل .

٤ ـ الإطناب والإيجاز في عدة مواضع .

تـنبيـه : العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع

(١) تلخيص البيان ص ٢٦ .

الآية السابقة ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ وقد كانﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول (اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ « المجددين » من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تَرُدُّهُ الشريعة الغراء ، والسنة النبوية المطهرة ، وكفانا الله شر علماء السوء .

* * *

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط . . إلى . . وكان الله شاكراً عليماً﴾ من الآية (١٣٥) إلى نهاية الآية (١٤٧) .

المناسبة : لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن ، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام ، ودعا إلى اداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً ، وحذّر من اتباع الهوى ، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل ، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم .

اللغة : ﴿تلووا﴾ الليُّ : الدفع يقال لويت فلاناً حقه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث (ليُّ الواجد ظلم) أي مطل الغني ظلم ﴿يخوضوا﴾ الخوض : الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نستحوذ﴾ الاستحواذ : الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ ﴿مذبذبين﴾ الذبذبة : التحريك والاضطراب يقال ذبذبته فتذبذب والمذبذب المتردّد بين أمرين ﴿الدَّرْك﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس : الدَّرْك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض ، والدركات بعضها أسفل من بعض[1] .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قوّامين﴾ حتى لا يكون منهم جورٌ أبداً ﴿شهداء لله﴾ أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعنكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحماً وإشفاقاً ﴿فالله أولى بهما﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير : أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل

(١) البحر ٣/ ٣٨٠ .

خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

على كل حال[١] ﴿وإن تَلْـووا أو تُعرضوا﴾ أي وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تُعرضوا عن إقامتها رأساً ﴿فإن اللـه كان بمـا تعملـون خبيـراً﴾ فيجازيكم عليه ﴿يا أيها الّذيـن آمنوا آمِنُوا بالله ورسوله﴾ أي اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه ﴿والكتاب الذي نزّل علـى رسوله﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿والكتاب الذي أنـزل مـن قبـل﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال أبو السعود : المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية[٢] ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبـه ورسلـه واليوم الآخـر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى ، وبَعُد عن القصد كل البعد ﴿إن الذيـن آمنوا ثم كفـروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفـراً﴾ هذه الآية في المنافقين[٣] آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس : دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير : يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى الايمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى[٤] ولهذا قال تعالى ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهـم سبيـلاً﴾ أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة قال الزمخشري : ليس المعنى انهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة لم يُقبل منهم ولم يُغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون ، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات ، والغالب أنه يموت على شر حال[٥] ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بشـر المنافقين بأن لهـم عذاباً أليمـاً﴾ عبّر تعالى بلفظ ﴿بشّرْ﴾ تهكماً بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿الذين يتخـذون الكافريـن أولياء من دون المؤمنين﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أيبتغـو ن عندهـم العـزة﴾ أي أيطلبون بموالاة الكفـار القـوة والغلبـة ؟ والاستفهام إنكاري أي إنّ الكفار لا عزة لهم فكيف تُبْتغى منهم ! ﴿فإن العزة لله جميعـاً﴾ أي العزة لله ولأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهييجُ على طلب العزة من جناب الله ﴿وقـد نزّل عليكـم في

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٧ . (٢) أبو السعود ١/ ٣٨٩ . (٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة واختاره الطبري .
(٤) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٨ . (٥) الكشاف ١/ ٤٤٧ .

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ

الكتاب﴾ أي نزّل عليكم في القرآن ، والخطابُ لمن أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق **﴿أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفر بها ويُستهزأ بها﴾** أي أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكْفر به الكافرون ويَسْتهزىء به المستهزئون **﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾** أي لا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر ويتركوا الخوض في القرآن **﴿إنكم إذاً مثلهم﴾** أي إنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر **﴿إن الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾** أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم لأن المرء مع من أحب ، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم . . ثم ذكر تعالى تربصهم السوء بالمؤمنين فقال **﴿الذين يتربصون بكم﴾** أي ينتظرون بكم الدوائر **﴿فإن كان لكم فتحٌ من الله﴾** أي غلبةٌ على الأعداء وغنيمة **﴿قالوا ألم نكن معكم﴾** أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين **﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾** أي ظفرٌ عليكم يا معشر المؤمنين **﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾** أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم ونتمكنْ من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتم عليهم ؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نواليكم ولا نترك أحداً يؤذيكم قال تعالى بياناً لمآل الفريقين **﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾** أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** أي لن يمكّنَ الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم[1] قال ابن كثير : وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة[2] **﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾** أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم ، وقد أعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، فسمّى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم راجع عليهم **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾** أي يصلون وهم متثاقلون متكاسلون ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً **﴿يراءون**

---

(١) ذكر القرطبي خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل : إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه الطبري حيث قال : يعني حجةً يوم القيامة واستدل له بما روي أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال : ادن مني ثم قرأ عليه **﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** أي يوم القيامة وقد ضعَّف هذا الرأي ابن العربي انظر القرطبي ٥/ ٤١٩ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٩ .

وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

الناس﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله **﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾** أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً **﴿مُذَبْذبين بيْن ذلك﴾** أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان ، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم **﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾** أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين **﴿ومن يضلل اللهُ فلن تجد له سبيلاً﴾** أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً الى السعادة والهدى ، ثم حذّر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة **﴿أتريدون أن تجعلوا للّهِ عليكم سلطاناً مبيناً﴾** أي أتريدون أن تجعلوا للّه حجة بالغة عليكم أنكم منافقون ؟ قال ابن عباس : كل سلطانٍ في القرآن حجةٌ ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال **﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾** أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس : أي في أسفل النار ، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله ، والنارُ دركات كما أن الجنة درجات **﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾** أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله **﴿إلا الذين تابوا﴾** وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق **﴿وأصلحوا﴾** أي أعمالهم ونياتهم **﴿واعتصموا بالله﴾** أي تمسكوا بكتاب الله ودينه **﴿وأخلصوا دينهم للّه﴾** أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** أي في زمرتهم يوم القيامة **﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾** أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة **﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾** أي أيُّ منفعةٍ له سبحانه في عذابكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم ؟ **﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾** أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المبالغة في الصيغة في ﴿قوّامين بالقسط﴾ أي مبالغين في العدل .

٢ ـ الطباق بين ﴿غنياً وفقيراً﴾ وبين ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ .

٣ ـ الجناس الناقص في ﴿آمَنُوا آمِنُوا﴾ لتغير الشكل .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿يخادعون .. خادعهم﴾ وفي ﴿جامع .. جميعاً﴾ وفي ﴿شكرتم .. شاكراً﴾ .

٥ ـ الاسلوب التهكمي في ﴿بشر المنافقين﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً .

٦ ـ الاستعارة في ﴿وهو خادعهم﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل ، واللهُ تعالى منزَّه عن الخداع .

٧ ـ الاستفهام الإنكاري في ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ ؟ والغرضُ منه التقريع والتوبيخ .

الفَـوَائِـد : الأولى : قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا﴾ ليس تكراراً وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي ثبتنا على الصراط المستقيم .

الثانية : سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحاً عظيماً ونسبه إليه ﴿فتحٌ من الله﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين ، وتخسيس حظ الكافرين .

الثالثة: قال المفسرون: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها، كذا في البحر.

تـنبيـه : المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ وأما المنافق فشرط عليه أربعاً : التوبة ، والإصلاح ، والاعتصام ، وإخلاص الدين له فقال ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ فدل على أن المنافقين شرٌّ من كفر به وأولاهم بمقته ، وأبعدهم من الإنابة إليه ثم قال ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين منه أجراً عظيماً﴾ ولم يقل « وسوف يؤتيهم » بغضاً لهم وإعراضاً عنهم وتفظيعاً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق ، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم .. إلى .. أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ من آية (١٤٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة ، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح ، إلا في حق من زاد ضررُه وعظُم خطرُه ، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر ، ثم تحدث عن اليهود وعدّد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله ، وعبادتهم للعجل ،

وادعائهم صلب المسيح ، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة .

اللغــة : ﴿جهرة﴾ عياناً ﴿بهتاناً﴾ البهتان : الكذب الذي يُتحير فيه من شدته وعظمته ﴿شُبّه﴾ وقع الشَّبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وأعتدنا﴾ هيأنا ﴿الراسخون﴾ المتمكنون من العلم .

سَبَبُ النّزول : روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد : إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملة فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء . . ﴾[1] الآية .

* ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

التفسيــر : ﴿لا يحب اللـه الجهرَ بالسُّوءِ مـن القوْل إلاَّ مَنْ ظُلِـمَ﴾ أي لا يحب اللـه الفُحْش في القول والإِيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء قال ابن عباس : المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلومـاً[2] ﴿وكـان اللـه سميعـاً عليمـاً﴾ أي سميعاً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إن تُبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عمن أساء إليكم ﴿فإن اللـه كـان عفواً قديـراً﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة ، قال الحسن : يعفو عن الجانيـن مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى[3] حثّ تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفوٌّ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم ؟ ! ﴿إن الذيـن يكفرون بالله ورسلـه﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره ، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل ، وكفرَهُم بالرسل كفراً بالله تعالى ﴿ويريدون أن يفرقـوا بين اللـه ورسلـه﴾ التفريقُ بين الله ورسله أن يؤمنوا باللـه ويكفـروا برسلـه ، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإِيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة : أولئك أعداء الله اليهود والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإِنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإِنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإِسلام دين الله الذي بعث به رسله[4] ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلـك سبيـلاً﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإِيمان ولا واسطة بينهما ﴿أولئك هـم الكافرون حقـاً﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإِيمان ﴿وأعتدنا للكافرين عذابـاً مهينـاً﴾ أي

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٥٢ . (٣) أبو السعود ١/ ٣٩٣ . (٤) الطبري ٩/ ٣٥٤ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ

هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم﴾ أي صدّقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمدﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿أولئك سوف نؤتيهم أجورهم﴾ أي سنعطيهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبيﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة ، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد ، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أفظع وأشنع تسلية للنبيﷺ للتأسي بالرسل فقال ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أي سألوا موسى رؤية الله عز وجل عياناً ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها قال أبو السعود : وهذه المسألة ـ وهي طلب رؤية الله ـ وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم[1] ﴿فعفونا عن ذلك﴾ أي عفونا عما ارتكبوه مع عظم جريمتهم وخيانتهم ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة ظاهرة تظهر صدقه وصحة نبوته قال الطبري : وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها[2] ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مطأطئين رءوسكم خضوعاً لله فخالفوا ما أُمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاءً ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق لعنّاهم وأذللناهم و﴿ما﴾ لتأكيد المعنى ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وقولهم قلوبنا غُلْفٌ﴾ أي

---

(١) أبو السعود ١/ ٣٩٤ . (٢) الطبري ٩/ ٣٦٠ .

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ

قولهم للنبي ﷺ قلوبنا مغشّاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد ، قال تعالى رداً عليهم ﴿**بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾ أي بل ختم تعالى عليها بسبب الكفر والضلال فلا يؤ من منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً**﴾ أي وبكفرهم بعيسى عليه السلام أيضاً ورميهم مريم بالزنى وقد فضلها الله على نساء العالمين ﴿**وقولهم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسول الله**﴾ أي قتلنا هذا الذي يزعم أنه رسول الله ، وهذا إنما قالوه على سبيل « التهكم والاستهزاء » كقول فرعون ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وإلاّ فهم يزعمون أن عيسى ابن زنى وأمه زانية ولا يعتقدون أنه رسول الله قال تعالى ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّه لهم**﴾ أي وما قتلوا عيسى ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شَبَهُه قال البيضاوي : روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأُخذ وصُلب وهم يظنون أنه عيسى[1] ﴿**وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه**﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله ، روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقيَ شبهه على غيره فقتلوه قالوا : إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ فاختلفوا فقال بعضهم هو عيسى وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره ، فأجمعوا أن شخصاً قد قتل واختلفوا من كان[2] ﴿**ما لهم به من علم إلا اتباع الظن**﴾ أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظنَّ الذي تخيَّلوه ﴿**وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه**﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجّاه الله من شرهم فرفعه إلى السماء حياً بجسده وروحه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة[3] ﴿**وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه ﴿**وإنْ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننَّ به قبل موته**﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤ منَنَّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس : لا يموت يهودي حتى يؤ من بعيسى قيل له : أرأيت إن ضرُبت عُنق أحدهم ؟ قال : يلجلج بها لسانه وكذا صحّ عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين[4] ﴿**ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿**فبظلم من**

---

(١) البيضاوي ص ١٤١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٦٣ . (٣) منها ما رواه الشيخان (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) الحديث وانظر كتاب « التصريح بما تواتر في نزول المسيح » للكشميري تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . (٤) اختار الطبري أن الضمير في ﴿قبل موته﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى : لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤ من بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة ، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود والكشاف والجلالين .

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرمنا عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محلّلة لهم ﴿**وبصدهم عن سبيل الله كثيراً**﴾ أي وبمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد : صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿**وأخذهم الربا وقد نهوا عنه**﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿**وأكلهم أموال الناس بالباطل**﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿**وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾ أي وهيأنا لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجع ﴿**لكن الراسخون في العلم منهم**﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته ﴿**والمؤمنون**﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبيﷺ من غير أهل الكتاب ﴿**يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك**﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء ﴿**والمقيمين الصلاة**﴾ أي أمدح المقيمين الصلاة فهو نصبٌ على المدح ﴿**والمؤتون الزكاة**﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿**والمؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ﴿**أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً**﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنة .

البَـلاغَـة : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿تبدوا . . أو تخفوه﴾ وبين ﴿نؤمن . . ونكفر﴾ .

٢ ـ التعريض والتهكم في ﴿قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته .

٣ ـ زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فبما نقضهم﴾ أي فبنقضهم .

٤ ـ الاستعارة في ﴿الراسخون في العلم﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قلوبنا غلفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة .

٥ ـ الاعتراض في ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة .

٦ ـ الإلتفات في ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم .

٧ ـ المجاز المرسل في ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ حيث أُطلق الكل وأُريد البعض وكذلك في ﴿كفرهم بآيات الله﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإِنجيل ولم يكفروا بغيرهما .

الفَوَائِد : قال في التسهيل : إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونه ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها : أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء ، والثاني: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا : رسولُ الله عندكم أو بزعمكم والثالث: أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قبله وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ ردٌّ على اليهود وتكذيبٌ لهم وردٌ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك ، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إلهٌ أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب[1] .

تَنْبِيه : دلَّ قوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإنما صلبوا شخصاً غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونه عيسى ، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل ، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرّع وبكى مع زعمهم أنه هو « الله » أو « ابن الله » وأنه جاء ليخلّص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال :

عجباً للمسيح بين النصارى	وإلى أي والدٍ نسبوه !
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً	وصحيحاً فأين كان أبوه ؟
حين خلّى ابنه رهين الأعادي	أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم	فاحمدوهم لأنهم عذبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه	واعبدوهم لأنهم غلبوه

* * *

قال الله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين . . إلى . . والله بكل شيء عليم﴾ .
من آية (١٦٣) إلى نهاية آية (١٧٦) آخر السورة الكريمة .

المُنَاسَبَة : لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح ، ذكر تعالى هنا أن الإِيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإِيمان ، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين ، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلا الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط ، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣ .

*﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾

اللغـــة : ﴿تغلـو﴾ الغلوُّ : مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يستنكف﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج : مأخوذ من نكفْتُ الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿برهان﴾ البرهان : الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿اعتصموا﴾ لاذوا ولجأوا والعصمةُ الامتناعُ ﴿الكلالة﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم .

سَبَبُ النّزول : جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد : لم تعيب صاحبنا ؟ قال : ومن صاحبكم ؟ قالوا عيسى قال : وأي شيء أقول فيه ؟ قالوا تقول : إنه عبد الله ورسوله ، فقال لهم : إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله قالوا : بلى فأنزل الله ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ الآية[١] .

التّفسِـير : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينـا إلى نوح والنبيين من بعـده﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوحٍ والأنبياء من بعده ، وإنما قدّم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وأوحينـا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ خصَّ تعالى بالذكر هؤلاء تشريفاً وتعظيماً لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوحٍ لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريته النبـوة والكتـاب﴾ وقدّم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى في تقديسه ﴿وآتينـا داود زبوراً﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال القرطبي : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكمٌ من الأحكام وإنما هي حِكَمٌ ومواعظ[٢] ﴿ورسلاً قد قصصناهـم عليـك من قبـل﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿ورسـلاً لم نقصصْهـم عليـك﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وكلّم اللـه موسى تكليمـاً﴾ أي وخصّ الله موسى بأن كلّمه بلا واسطة ولهذا سُمي الكليم ، وإنما أكّد ﴿تكليماً﴾ رفعاً لاحتمال المجاز قال ثعلب : لولا التأكيد لجاز أن تقول : قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً فلما قال تكليماً لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى[٣] ﴿رسـلاً مبشرين ومنذريـن﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لئلا يكون للناس على اللـه حجةٌ بعد الرسـل﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أُرسل إليَّ رسولٌ لآمنتُ وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وكـان الله عزيـزاً حكيمـاً﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه ، ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٠٧ . (٢) القرطبي ٦/ . (٣) البحر ٣/٣٩٨ .

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز **﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾** أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره **﴿إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾** أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات **﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾** قال الزمخشري : أي جمعوا بين الكفر والمعاصي[1] **﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً﴾** أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر **﴿إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً﴾** أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلّدين فيها أبداً **﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾** أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾** أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة السمحة من عند ربكم **﴿فآمنوا خيراً لكم﴾** أي صدّقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيراً لكم **﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾** أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** أي عليماً بأحوال العباد حكيماً فيما دبره لهم ، ولما ردّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الردّ على ضلالات النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾** أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدَّ في أمر الدين بافراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته **﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾** أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد **﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾** أي ما عيسى إلا رسولٌ من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم **﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾**

(١) وقال الطبري : أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر .

وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ

أي وقد خلق بكلمته تعالى « كنْ » من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿وروحٌ منـه﴾ أي ذو روح مبتدأةٍ من الله وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى ، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً ﴿فآمنوا بالله ورسلـه﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿ولا تقولـوا ثـلاثـة﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، أو الله ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه ﴿انتهوا خيـراً لكـم﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿إنمـا الله إله واحـد﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿سبحانه أن يكـون لـه ولد﴾ أي تنزّه الله عن أن يكون له ولد ﴿لـه ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿وكفـى بالله وكيـلاً﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولدٍ أو معين لأنه مالك كل شيء ، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿لـن يستنكف المسيح أن يكـو ن عبداً للـه﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إلهٌ عن أن يكون عبداً للّه ﴿ولا الملائكـة المقربو ن﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله ﴿ومن يستنكـفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليـه جميعاً﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجو رهـم﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم ﴿ويزيدهـم من فضلـه﴾ أي بإعطائهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابـاً أليمـاً﴾ أي وأما الـذين أنفـوا وتعظّموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿ولا يجـدون لهم من دون الله وليـاً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿يا أيهـا الناس قد جاءكـم برهان من ربكم﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤ يد بالمعجزات الباهرة ﴿وأنزلنا إليكـم نو راً مبينـاً﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿فأما الذين آمنـوا بالله واعتصموا بـه﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿فسيدخلهـم في رحمةٍ منه وفضلٍ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود ﴿ويهديهم إليه صراطـاً مستقيماً﴾ أي

مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

يهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والدٌ أو ولد من يرثه؟﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ أي قل لهم من مات وليس له والدٌ أو ولد وهي الكلالة ﴿وله أختٌ فلها نصف ما ترك﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخواتٍ فللذكر منهم مثل نصيب الأختين ﴿يبيّن الله لكم أن تضلوا﴾ أي يبيّن الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات .

البَـلاَغَـة : ١ ـ تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى « مرسلاً مفصلاً » .

٢ ـ قوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم « النصارى » بدليل قوله بعده ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ وهي قولة النصارى .

٣ ـ قوله ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسولُ الله﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة .

٤ ـ في قوله ﴿يشهدون . . وشهيداً﴾ جناس الاشتقاق .

الفَـوَائِـد: لفظة « مِن » تكون للتبعيض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وروح منه﴾ يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزءٌ من الله وتلا هذه الآية ﴿وروحٌ منه﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً منه فانقطع النصراني وأسلم ، وفرح الرشيد بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة عظيمة[١] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء »

(١) تفسير أبي السعود ١/٤٠١

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يوزع مجانًا ولا يُباع